الليل أو بعده بقليل ومعهم «العوين» أي زادهم: ركوة ماء وشيء من التمر وقليل من الأقط إن وجد. يأكلونه في وجبة مشتركة عندما يتجمعون للاستراحة عند الزوال وقبل أن يبدأوا في ترتيب ما احتطبوا في رزم يربطونها بالحبال على ظهور دوابهم. وكجميع الأعمال التي يقوم بها بنو البشر والتي تكون عرضة لملاحظات وتعاليق الناس فإن الحَطُوبة (وبالأمازيغية: ماسان)، أي حمولة الدابة من الحطب، كانت من الأشياء التي تنطق بمدى مهارة المحتطب وكفاءته. لقد كان تنسيق عيدان الحطب أو أكوام النبات اليابس على ظهر الدابة يتطلب مهارة خاصة. ولا شيء كان يجلب المتاعب والشعور بالحرج والدونية للمحتطب من انفراط عقد الحطوبة المنضوض على ظهر دابته. فإذا حصل ذلك في الطريق قبل دخول المدينة تسبب في تأخر رجوع الجماعة المحتطبة التي تحرص عادة على العودة قبل مغيب الشمس، فكانت تصب جام غضبها، وإن بصمت، على صاحب الحَطُوبة المتفككة، إذ كان عليهم أن يساعدوه وينتظروه. أما إذا تفككت الحمولة داخل المدينة بسبب اصطدام عيدانها بجدران الأزقة الصغيرة فإن الحرج يكون أشد وأكبر، إذ يتعطل المرور ويصير خبر «الحادثة» على كل لسان...

لم يذهب العم إلى الاحتطاب هذه المرة بل رافق أخاه وابن هذا الأخير إلى محطة الحافلة. ولا يتذكر صاحبنا كيف قضى الطريق على الحافلة مع والده من فجيج إلى بوعرفة. ولا شك أنه قضى معظم الوقت في الحافلة نائماً أو مستنداً على أبيه، فلقد كان يصاب بالدوار، مع ما يصحب ذلك من إفراغ ما في البطن عن طريق الفم بمجرد ركوب السيارة. ولم يكن ذلك بسبب حركتها فقط، بل أيضاً، ولربما كان هذا هو السبب الحقيقي، بفعل رائحة البنزين. إنه يتذكر جيداً أنه ذهب يوماً إلى محطة الحافلة مع بعض أقاربه الذي كان مسافراً. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها حافلة الركاب، بل ولربما السيارة على العموم...

المهم هنا هو أنه ما إن أدار السائق محرك الحافلة حتى انبعث منها دخان كثيف مصحوب برائحة بنزين قوية لم يتحملها صاحبنا، فأخذ يتقيأ إلى درجة الاختناق... ومن ذلك اليوم ارتبطت في ذاكرته وجميع حواسه رائحة البنزين بالشعور بالرغبة في التقيؤ. وما زال يذكر أنه عانى الأمرين عندما بعثه الشهيد المهدي إلى «طريق الوحدة» صيف سنة ١٩٥٧ على سيارة جيب، ومعلوم أن «الطريق إلى طريق الوحدة» صعب وملتو يتسبب في «الدوار» حتى لمن ليس له استعداد لذلك.

ومع أن الشخص الذي كان يقود «الجيب» كان طبيباً فإنه لم يأبه بما كان يعانيه

خصوصاً و «الطبيب» كان يتصرف دونما قلق أو امتعاض أو اهتمام. لقد كان صاحبنا يعتقد أن الطبيب ـ بما هو طبيب ـ سيتوقف وسيعمل على معالجة هذه الحالة المرضية. غير أنه لم يفعل ولم يهتم. ولم يتخلص صاحبنا من هذا «الضعف» إزاء السيارة ورائحة البنزين إلا عندما صار يمتلك سيارة ويقودها بنفسه، فحينئذ زال «الضعف»، ربما لأنه صار سيد الموقف، وربما لأن نتائج موقف الضعف ذاك خطيرة جداً مع قيادة السيارة، ولذلك كان تجاوزه أمراً يفرض نفسه...

أما موقف الطبيب وعدم اكتراثه بما كان يعاني فلم يتمكن من فهمه وتفهمه إلا في مرحلة متقدمة من عمره عندما اضطرته أحواله الصحية لدخول المستشفى والخضوع لعملية جراحية في كليته مرتين. حينذاك اكتشف أن الأطباء لهم تصور خاص لـ «الطبيعي» وغير «الطبيعي»، غير التصور الذي لمطلق الناس.. وقد تأكد لديه هذا التصور «الطبي» حينما صار يحتك أكثر بالطب والأطباء من خلال أولاده أنفسهم.. لقد تأكد لديه فعلاً أن كثيراً من رجال الطب يعامل المرضى من وجهة نظر طبية محض. فما يجد تفسيره طبياً فهو عندهم «طبيعي». أما الجانب «الإنساني» فغائب. إن المريض في اصطلاحهم «موضوع» و «حالة» ليس غير. وربما يجد سلوكهم هذا تفسيره في كون العلم، والطب منه، يعتبر أن التزام «الحياد» وعدم الاستسلام للعاطفة شرط ضروري للمهنة. غير أنه يبقى، مع ذلك الجانب الإنساني وكذلك الجانب النفسي بوصفهما ميداناً للعلاج كذلك.

وعلى كل حال فلم يكن صاحبنا يفكر في هذه الأمور ولا بهذا المنطق عندما ركب الحافلة مع أبيه في اتجاه بوعرفة. لقد كان «صغيراً»، فعلاً، عن مثل هذه الأشياء وبالتالي فكل ما يمكن أن ننتظره منه هو نوع انطباعه إزاء هذا العالم الجديد الذي انتقل إليه لأول مرة: عالم قرية بوعرفة الذي كان بالنسبة له أول عالم خارجي حقيقي يتصل به، بعد «العالم الوهمي» الذي كان ينقله إليه رنين عمود التليفون كما ذكرنا في فصل سابق.

والحق أن صاحبنا يتذكر جيداً أنه انتابه نوع من الذهول عندما وصل بوعرفة، فلقد كانت مبانيها وأزقتها تختلف تماماً عن مباني وأزقة قصور فجيج. لم تكن أبنيتها من الطين والطوب وخشب النخل ولا كانت أزقتها ضيقة مسقفة، جزئياً أو كلياً، كما هو الحال في فجيج، بل لقد كانت مبانيها من الحجارة والجير والاسمنت،

وكانت شوارعها واسعة عارية. أما دكاكينها فكانت مصفوفة على جانبي الطريق الرئيسية شأن القرى الحديثة.

بالفعل كانت بوعرفة قرية حديثة تقع على سفح جبلين يقع خلفهما، في شعاب ضيقة، منجم معدني تربطه بمنجم جرادة شمالاً ومنجم بشار جنوباً سكة الحديد التي كانت محطتها بجانب المنجم وعلى بعد بضع كيلومترات من مركز بوعرفة. كان والد صاحبنا يتخذ من بوعرفة مركزاً لتجارته كما أسلفنا، فكانت له عدة دكاكين بالشراكة مع بعض أبناء عمه، وكان أخوه الأوسط يتولى النيابة عنه هناك.

كان أكثر ما شد صاحبنا في دكاكين والده تلك الأكياس المملوءة بالمواد الغذائية المصفوفة وسط دكان أبيه، فهو لم يسبق له أن شاهد من قبل مثل هذه الكمية ولا هذه الأنواع من المواد الغذائية. وكان أكثر ما يشده إليه تلك الأكياس التي كانت مملوءة بما كان يسميه الناس يومئذ بـ «سكر البون»، وكان يوزع بالبطائق (البون) على الناس بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية. لقد كان صاحبنا يعرف السكر جيداً، سكر القالب المكسو بالورق الأبيض والأزرق، والذي كان جده لأبيه ماهراً كجميع المتقنين لإقامة الشاي (= إعداده بين الحضور) في كسره بواسطة ضربات متقنة وموزونة، إما بواسطة مطرقة خاصة بالسكر وإما بواسطة قاع كأس من كؤوس الشاي. وكسر السكر بكأس الشاي عملية تتطلب مهارة، ليس فقط محافظة على الكأس أن ينكسر، بل أيضاً لكي يكون الصوت، صوت الضرب على السكر، واضحاً وقوياً ينقل الرسالة إلى الجيران... وإذا كان صاحبنا قد اعتاد على الجلوس بجانب جده وهو يكسر قالب السكر بالكأس أو بالمطرقة ويحوله إلى قطع صغيرة يتسع لها عنق إبريق الشاي، فإنه هذه المرة ـ في بوعرفة ـ كان إزاء سكر من نوع آخر وفي شكل آخر: كان عبارة عن حبيبات، في حجم حبات الكسكس، وكان منه الأصفر والوردي. وكان صاحبنا يأخذه من الأكياس ليملأ به جيوبه، فضلاً عن فمه ويديه. كان السكر الأبيض شبه مفقود في ذلك الوقت بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، وكان نادراً حتى في مدينة فجيج التي لم يكن أهلها يستسيغون ذلك النوع من السكر الملون فكان بعضهم يستعيض عنه بالتمر. وما يزال صاحبنا يتذكر أن جدته لأبيه، التي كانت مولعة بشرب القهوة إلى درجة أنها كانت تشكو من وجع الرأس إذا لم تشربها في الأوقات التي اعتادت شربها فيها، كانت تنفر من السكر الملون وتفضل عليه وضع ثمرة في فمها قبل ارتشاف القهوة، فكانت عملية التحلية تتم في الفم، بمضغ أو بدون مضغ.

وتتشابك في ذاكرة صاحبنا ذكرى السكر الملون مع ذكرى «الروز» (الأرز) الذي كان يوزع على أهل فجيج سنوات الحرب العالمية الثانية. كان ذلك قبل سفر صاحبنا إلى بوعرفة إذ كان ما يزال في بيت أهله لأمه. إنه يتذكر جيداً كيف أنه فوجىء ذات يوم بشيء أبيض كالعجين كوجبة غذاء للأسرة قدمته لهم أمه في «القصعة» (صحن مصنوع من جذع الشجر) بدل الكسكس الذي كان الوجبة الغذائية الرئيسية. لقد نفر منه صاحبنا نفوراً شديداً لبياضه «المخيف» ولزوجته المقلقة للقلب. ولم يكن ذلك شعوراً خاصاً بصاحبنا وحده بل كان شعور جميع أفراد الأسرة بل أهل فجيج كلهم. لقد اقترن توزيع «الروز» في تلك الفترة على السكان بما يشبه المجاعة، فكانت ذكراه سيئة، حتى صار الناس يذكرون «عام الروز» مقترناً في أذهانهم بالضائقة الاقتصادية. لقد اعتاد سكان فجيج على الكسكس الذي يتفنّنون في إعداده من القمح الصلب أو من الشعير، كما اعتادوا على أصناف من الخبز يعدونها في منازلهم: الخبز بالخميرة، والبغرير، والشريد. وكان هذا الأخير يعد وجبة «أرستقراطية»، فكان ينحصر إعدادها في الغالب يوم عيد الأضحى، إذ كان يسقى بمرق لحم الخروف، خروف العيد... أما الأرز فلا وجود له.. وأنى له أن يوجد في واحة صحراوية.

على أن المادة الغذائية الأساسية التي كانت «أعدل الأشياء قسمة بين الناس» في فجيج هي بلا منازع: التمر، إذ لم تكن تخلو منه دار ولا طعام يوم. والعائلات الميسورة تأكله في الصباح مع اللبن كوجبة أولى يليها الكسكس أو الخبز مع المرق. لقد كان لكل عائلة تقريباً نصيبها من التمر تقطفه من بساتينها وحقولها. أما العائلات الفقيرة فكانت تنال منه حظها زمن جني الغلة في الخريف، إما في شكل هدايا وإعانات من الأقارب والجيران، وإما كحقها من الزكوات. وكان الجميع يخزن التمر في خوابٍ يضغط فيها ضغطاً قوياً حتى يتلبد ويخرج ما به من هواء مما يساعد على الاحتفاظ به مدة طويلة بدون فساد.

لم يكن في قرية بوعرفة نخيل. فهي مركز تجاري وملتقى طرق، ولكنها كانت تمتاز لقربها من «الدهرا»، سهل المراعي المشهورة بتندرارة، بتوافر «الأقط» فيها بكميات كبيرة، وكان يؤكل بمفرده أو مع التمر. هذا إضافة إلى «الترفاس» (الكمأة). ونستطيع أن نتصور مدى شغف الناس بهاتين المادتين إذا عرفنا أن الأقط كان في تلك الناحية بمثابة «الشكلاطة» لأبناء اليوم، وأن «الترفاس» كان بمثابة الجبن...

وبطبيعة الحال لم يكن يعرف أطفال ذلك الزمان، لا الشكلاطة ولا «الفنيد» والحلوى التي تعج بها الحياة المعاصرة. ومع ذلك ففقدان مادة بعينها لا يعني دائماً غياب ما يوازنها ويقوم مقامها عند الناس. لقد كان أطفال ذلك الزمان يجدون ما يقوم مقام الشكلاطة و «الفنيد» لدى أطفال اليوم فيما كانت تجود به الطبيعة من ثمار خاصة. كان هناك «النبق» الذي كان الأطفال يجنونه من شجر السدر في البادية وقريباً من كثبان الرمال مسلحين بعصي طويلة يضربون بها أغصان ذلك الشجر المليء شوكاً فيتساقط النبق على الأرض، ثم يأخذ الأطفال في جمعه بحذر زائد، ليس فقط اتقاء للأشواك الحادة التي يتميز بها هذا النبات بل أيضاً اتقاء للسع العقارب والزواحف التي لا تخلو من أجحارها مثل هذه الأماكن. وإضافة إلى النبق كان هناك في الجبال المطلة على بوعرفة مجال واسع لجني جذوع «الامَن»، ذلك النبات القصير الذي يمكن القول عنه إنه كان يقوم لأطفال الأمس بتلك الناحية مقام الموز ـ أو «البنان» ـ لأطفال اليوم، نظراً للشبه بينهما، على الأقل من حيث إن كلاً منهما مغشى بغلاف وأن مادته بيضاء في حجم الموز تقريباً. ويذكر صاحبنا كيف أنه كان يقضي معظم النهار، خلال إقامته في بوعرفة في التجول مع أقرانه في الجبل بحثاً عن النبق و «ألامن»، وكان قد اعتاد على ذلك في مسقط رأسه فجيج.

هذا في النهار، أما في الليل فقد كان صاحبنا يأوي إلى المنزل الذي يسكنه عمه هو وبعض أصدقائه العزب. أما من كان منهم متزوجاً فقد ترك زوجته كالعادة في البلد: كانوا شباناً دون الثلاثين فيما يخيل اليوم لصاحبنا. وبما أنهم كانوا يخافون عليه، وكان في حدود العاشرة من عمره، أن يستيقظ ليلاً قبل رجوعهم من سهراتهم فلقد كانوا يحملونه معهم إلى الدكان حيث تبدأ سهراتهم، يلعبون الورق (الروندة) أو «الشيت»، حتى إذا نام الطفل تركوه هناك وأغلقوا باب الدكان بالمزالج والمفاتيح وقصدوا أماكن أخرى. وإذا كان صاحبنا لا يستطيع اليوم أن يستعيد كيف تعرف على مكان سهر عمه وأصدقائه فإنه يرى بوضوح كيف أنه استيقظ ذات ليلة ليجد نفسه وحيداً في الدكان بين أكياس السكر الأصفر والأحمر و «غراري» (أكياس) الأقط وأنه أشعل المصباح وعمد إلى مزلاج الباب فرفعه وفتح القفل ثم خرج متجهاً وجهة ما، قادته إلى البيت الذي كان يسهر فيه عمه وأصدقاؤه ومعهم نسوة، وتتوسطهم صينية شاي يعلوها دخان كثيف من سجائرهم... ولشد ما كانت دهشة عمه عندما رآه واقفاً أمامهم كالشرطي الصغير فقفز من مكانه هو وصديق له وعادا بالطفل إلى المنزل حيث ناما هذه المرة حتى الصباح.

القارىء، فلقد كان العم يفتخر أمام أصدقائه بكون ابن أخيه، هذا الطفل الصغير، استطاع بمفرده أن يفتح باب الدكان ثم يغلقه ليلحق به، في منتصف الليل، في المكان الفلاني، دون معين ولا مرشد، ودون أن يكون قد تعرف على ذلك المكان من قبل ولا أن يخاف من الليل وظلامه.. وعندما يتذكر صاحبنا اليوم هذه الحادثة لا يجد تفسيراً لهذا الذي كان يفتخر به عمه، والذي سمعه آنذاك يكرره على أصحابه، إلا في ذلك المفهوم الغامض الذي يدعوه الناس بـ «الغريزة». وإذا كان صغار الحيوانات تتعرف على أمهاتها ومكان وجودها بـ «الغريزة» وحدها، فيبدو أن صغار بني البشر الذين لم يفصلهم العقل بعد عن الحيوان فصلاً تاماً، تقودهم «الغريزة» التي تستيقظ عند الأمهات حينما يفتقدن أبناءهن. حقاً إن «الإنسان حيوان عاقل»، ولكن يبدو أنه ليس كذلك دوماً، إذ تقوم الغريزة فيه مكان العقل، ليس زمن الصبا وحسب بل وعلى عهد الكبر أيضاً.

ـ ٣ ـ

سافر صاحبنا مرة ثانية إلى بوعرفة في السنة الموالية، وكان مقامه فيها هذه المرة خالياً من «الجديد» الذي يفرض نفسه على الذاكرة. مشهد واحد احتفظت به ذاكرته من هذه الرحلة التي يبدو أنها كانت قصيرة ومقتضبة، وهو أنه سمع عمه الأصغر الذي كان ذاهباً به من مركز بوعرفة إلى محطة القطار على عربة يجرها حمار، يقول وكأنه يخاطب نفسه: «الصغار يذهبون لرؤية وجدة والكبار يبقون هنا».

كان هذا العم الكادح في الأسرة قد جاء به والد صاحبنا إلى بوعرفة ليساهم في أشغال البناء الخاصة بالدور التي كان يشيدها هناك كجزء من مشاريعه التجارية. ومع أن صاحبنا كان أصغر سناً من عمه هذا فإنه لم يكن «الأصغر» في العائلة، ليس فقط لأنه كان ابن الأخ الأكبر، الرجل الثاني في الأسرة الذي أصبح يقوم مقام الوالد للجميع، على الرغم من وجود الأب كمرجعية عليا، بل أيضاً لأن وضعية هذا الابن كطفل ينتمي من جهة أمه إلى عائلة «أخرى» تقوم بينها وبين «العائلة» قطيعة الطلاق.. إن وضعيته هذه تفرض على من يريد الاحتفاظ به من العائلتين أن يعامله معاملة خاصة: أن يتصرف معه لا كـ «صغير» يوضع في الرتبة الأخيرة، بل كـ «كبير» يوضع في مرتبة «الكبار» إن لم يكن فوقهم.

في هذا الإطار يدخل سفر صاحبنا إلى وجدة قبل عمه «الأصغر» الذي كان يكبره بما لا يقل عن عشر سنوات. وفي هذا الإطار كذلك كانت تقع صنوف الاسترضاء التي كان يعامل بها هذا الطفل من جميع أفراد العائلة، ومنها هذا الامتياز الذي خصه به أبوه: السفر إلى وجدة، عاصمة المنطقة. كان والد صاحبنا قد طلب من أخيه أن يبعث إليه ابنه إلى وجدة مع بعض المسافرين من معارفه. وإذا كان صاحبنا لا يذكر شيئاً غير العبارة المذكورة التي لا شك أنه أدرك معناها بالكامل، كما يدرك الأطفال عادة ما يعتقد الكبار أنهم لا يفهمونه، فإنه لا يستطيع أن يتهم ذاكرته بالزيادة أو بالنقصان بخصوص هذه العبارة: إنه يتذكر بكل وضوح أنه كان جالساً بجانب عمه على عربة يجرها حمار وهي تسير بهم بمحاذاة سكة الحديد على سفح الجبل. كما أن صاحبنا لم يشك، في تلك اللحظة ولا بعدها في عواطف عمه إزاءه. فلقد كان متعلقاً به كباقي أفراد الأسرة، يصحبه معه ويحدثه ويحاول أن ينقل إليه ما يطبع سلوكه وتفكيره من جدية واستقامة. ولذلك يستطيع صاحبنا أن يجزم اليوم بأن ردود فعل هذا العم الكادح الجاد المعروف بصفاء الطوية لم تكن تختلف عن رد فعل الواحد من بني الإنسان على «ظلم» صار مقبولاً لديهم ومفهوماً، يبتلعه الناس كما يبتلعون بدون لذة كثيراً مما يمضغون أثناء وجبة من الوجبات اليومية التي صار المضغ فيها عملية روتينية.

وعبثاً يحاول صاحبنا أن يتذكر شيئاً آخر من رحلته من بوعرفة إلى وجدة: إنه لا يتذكر القطار ومكوثه فيه ولا القريب أو الأقارب الذين سافر معهم ولا لحظة الوصول إلى وجدة، تماماً مثلما لا يتذكر أي شيء عن مجيئه إلى بوعرفة أو مقامه فيها إلى اللحظة التي سمع فيها تلك العبارة من عمه. وإنه لما يثير الدهشة والاستغراب أن تظل العبارة المذكورة، والمشهد الذي يؤطرها في ذاكرة صاحبنا لحظة تفوه عمه بها، عالقة بذهنه، منقوشة في ذاكرته كواقعة يتيمة ليس لها قبل ولا بعد. أليس هذا دليلاً على أننا لا نتذكر إلا ما كان له وقع خاص في نفوسنا؟ وهل كان التاريخ في جملته، تاريخ الأمم والدول شيئاً آخر غير ما كان له وقع في نفوس الناس وتردد صداه بصورة أو بأخرى في نفوس المؤرخين؟ وهل كان يمكن لأي مؤرخ كتابة «التاريخ» لو كان يريد أن يجعل منه سجلاً لجميع وقائع الحياة؟ حقاً إن الذكريات لا تعيش إلا مع النسيان، والتأريخ لا يستقيم بدون ما أهمله التاريخ.

يستطيع صاحبنا أن يؤرخ لزيارته الأولى لوجدة بكل ثقة المؤرخين في تأريخهم للأحداث التي عاصروها. ذلك أن أبرز ذكرى نقشت في ذاكرته نقشاً، لم تنل منها

صاحبنا مشاهد منها وكأنها حدثت قبل لحظات. جرت هذه الفتنة، كما عرف فيما بعد، بسبب إظهار يهود وجدة ابتهاجهم في ظروف الحرب العربية ـ الإسرائيلية سنة ١٩٤٧، وذلك بصورة استفزت شعور الوجديين الذين لا شك أنهم كانوا يتتبعون بانشغال زائد، عبر الإذاعات والجرائد، أخبار تلك الحرب...

ومع أن صاحبنا ـ الذي كان عمره ١١ سنة ـ لا يتذكر أنه كان يعرف شيئاً عن قضية فلسطين، فإنه يتذكر الآن أن عمه الأكبر، الذي كان قد انتقل من بوعرفة إلى وجدة وفتح دكاناً للخياطة، كان منشغلاً بتتبع الأخبار بواسطة جهاز راديو كان عنده في الدكان. وكانت المحطة الإذاعية المفضلة يومئذ عند أهل وجدة هي «راديو طنجة» الذي كان يذيع الأخبار بشيء من الموضوعية والحياد لكون مدينة طنجة لم تكن مستعمرة بل كانت تحت الإدارة الدولية وبالتالي فالإذاعة فيها لم تكن خاضعة للرقابة الفرنسية أو الاسبانية.

يتذكر صاحبنا إذن، وبكامل الوضوح، مشهد «الزازة» الذي حضره، لا متفرجاً، بل مقحماً فيه بفعل المصادفة: ها هو ذا خارج من منزل خالة أبيه، حيث كان يقيم. وها هو ذا يقترب من دكان عمه الذي يقع في أول «قيسارية التاج» بساحة «سيدي عبد الوهاب»، التي تحيط بها متاجر الكتان والثياب بكيفية خاصة، لتمتد هذه المتاجر إلى الأزقة المجاورة التي كانت تقع فيها متاجر الثياب والذهب لأصحابها من يهود المدينة. كانت الشمس ما تزال تنشر أشعتها الذهبية على جدران هذه الأزقة في سكون رتيب كالعادة. وفجأة يقف صاحبنا مشدوهاً، يلتفت يمنة ويسرة ويحاول أن يشق له طريقاً عبر هذه الجموع التي تتحرك في هرج ومرج. المتاجر تقفل أبوابها بسرعة، والأيدي تلوح، والحناجر تصيح، والأحجار تنهال على بعض المتاجر... ثم حريق ودخان. وها هو ذا عمه يجري نحوه لاهثاً... يمسكه بيده ويعود به مسرعاً دون أن ينبس ببنت شفة، ويدخله دكانه، الذي كان غير بعيد، ثم يغلق عليه الباب و[illegible] ثم ينتهي كل شيء. جلس صاحبنا على المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه في دكان عمه عندما يركب الأزرار أو يكوي القمصان. أما [illegible] غير بعيد من دكانه، يراقب ويتفرج. لقد طوقت القوات الفرنسية منطقة الحادثة بسرعة وبدأت الكبسة «لارافل» (= الاعتقال بالجملة)...

Bibliotheca Alexandrina

لا يذكر صاحبنا كم كان قد مضى على مقدمه إلى وجدة عندما وقعت هذه

الحادثة. ولكنه يرجح أن يكون ذلك بعد أسبوعين أو أكثر. دليله على هذا أن مشهد هذه «الزازة» لم يقترن في وعيه بأي شعور بالخوف من أن يضل الطريق وسط تلك الجموع الهائجة، وهذا يعني أنه كان قد تمرّن على الذهاب من منزل خالة أبيه إلى دكان عمه دون الاستعانة بأية علامة أو إشارة. لقد كان من قبل يضع حجارة بجانب كل زاوية عند منعطفات الطريق، متخذاً منها علامة ترشده، راسماً هكذا لنفسه معالم الطريق، طريق العودة. ولا يذكر صاحبنا كيف اهتدى إلى هذه الوسيلة في «رسم خط الرجعة» ولا من أوحى له بها. كل ما يذكره هو أن خالة أبيه وابنتها وأبناءها ظلوا لمدة طويلة «يتندرون» بهذه الطريقة، يحكونها للزوار. ولا يستطيع صاحبنا أن يجزم هل كان ذلك إعجاباً وتنويهاً مباشراً أو غير مباشر بـ «ذكاء» صاحبنا، أم أنه على العكس كان ذلك «التندر» من النوع الذي يخص به أهل المدينة أبناء القرى الذين يتخلل سلوكهم تصرفات تثير الضحك والاستغراب.

وعلى كل فإن معنى «المداعبة» هو الذي بقي حياً في ذاكرة صاحبنا. ومما يزكي هذا المعنى في نفسه هو أن ابن خالة أبيه قال له يوماً: «كيف تعمل للتعرف على طريق العودة لو كنت راكباً حماراً أو سائقاً لعربة يقودها حصان؟». كان عبد الرحمان ثاني أكبر أبناء خالة أبيه، معروفاً بسلامة الطوية وبجدية فريدة يعمرها انبساط وابتسامة دائمان مع تجنب الهزل. أما الكذب، حتى «الأبيض» منه، أما النفاق، حتى ما كان منه مجاملة، فلم يكن لهما مكان في سلوكه، لا مع نفسه ولا مع غيره، أقرباء كانوا أو بعداء، صغاراً كانوا أو كباراً. كان الجميع يأتمنه ويصدقه ويتفهم ردود فعله الاحتجاجية إزاء ما يعتبره الناس عادة جائزاً يقع خارج منطقة الممنوع مع أنه يدخل ـ رسمياً ـ في عداده. ومع أن صاحبنا كان مشدوداً إلى أصغر أبناء خالة أبيه الذي كان في مثل عمره فإنه كان أكثر ارتياحاً واطمئناناً إلى عبد الرحمان منه إلى أي شخص آخر من «الكبار». ولذلك كثيراً ما كان يستيقظ في الصباح الباكر ليصحبه في جولاته على الأحياء العصرية (التي يسكنها الفرنسيون) من المدينة.

كان عبد الرحمان يشتغل عند صاحب مخبزة عصرية ـ وهو فرنسي ـ وكان يوزع «البولانجي» (الخبز العصري) على منازل «المشتركين» من الجالية الفرنسية، على ظهر عربة خاصة لهذا الغرض يقودها حصان أسود يميل إلى الحمرة، مسرج بلجام أنيق ركبت فيه على الحزام الذي يمر بجانب عيني الحصان قطعتان سميكتان من الجلد، لم يكن صاحبنا يفهم وظيفتهما، تماماً مثلما لم يكن يفهم وظيفة النواقيس

المركبة على عنق الحصان والتي كانت تحدث أصواتاً رتيبة تتناغم مع وقع حوافره على الأرض. وكان يحلو لصاحبنا أن يجلس على مقعد «الحوذي» ويمسك اللجام بيده في الأوقات التي ينزل فيها ابن خالة أبيه ليوزع الخبز على الزبناء الذين كانوا يخرجون إلى باب منازلهم مع وصول العربة وكأنهم على موعد معها. كان هؤلاء فرنسيين في غالبيتهم، وكانوا يعرفون بالضبط الوقت الذي تصل فيه العربة، أو على الأصح كان عبد الرحمان يحرص على الحضور إليهم في الوقت المحدد. وقد عرف صاحبنا من ابن خالة أبيه أن نواقيس الحصان التي تسمع من بعيد هي التي كانت تنبههم إلى قرب وصول العربة.

كانت الجولة، جولة توزيع الخبز، تنتهي مع طلوع الشمس قبل الضحى. ولم يكن صاحبنا يرافق ابن خالة أبيه إلى بناية المخبزة حيث كان يعود بالعربة والحصان ـ فصاحب المخبزة لا يقبل مثل هذا التصرف ـ ولذلك كان ينزل في الطريق قريباً من المنزل ليلتحق به عبد الرحمان على رجليه. وكان هذا الأخير يقضي بقية نهاره مع أبيه في الدكان يساعده، وكان صاحبنا يتردد من حين لآخر على هذا الدكان الذي كان مكتظاً بالمواد الغذائية التي كان كثير منها يثير فضوله وإعجابه واندهاشه، إذ لم يكن قد تعرف عليها من قبل، خصوصاً تلك التي تحفظ في علب من الزجاج الشفاف مثل الزبيب والبرقوق الأسود والزيتون وأصناف كثيرة من «الفنيد» ـ الحلوى ـ الزاهية ألوانه: أصفر، أخضر، أحمر... أضف إلى ذلك أكياس العدس وصنوف القطاني والدقيق مما لم يكن صاحبنا قد تعرف عليه من قبل. وحتى التمر الذي كان الغذاء الرئيسي في مسقط رأسه فجيج قد وجد منه في هذا الدكان أنواعاً لم يسبق له أن عرفها من قبل، خصوصاً ما كان يستورد من الجزائر. ويتذكر صاحبنا جيداً أن من المواد الغذائية التي لم يكن قد رآها من قبل والتي تعود عليها بسرعة في هذا «العالم الجديد»، عالم مدينة وجدة، عدداً من الفواكه والخضروات: من الموز إلى الملوخية والسفرجل والبطاطا، إلى البطيخ الأصفر (= الشمام) الشديد الحلاوة، هذا فضلاً عن أنواع من الكعك والحلوى المنزلية والحريرة والخبز.

أجل، لقد تعود صاحبنا على شرب الحساء في فجيج، حساء دقيق الشعير أو مكسوره، ويسمى «إيوزان» يؤكل عقب التمر، «كبساً» له في المعدة وتخفيفاً من وقع حلاوته على اللسان. وكان هذا النوع من الحساء ثخيناً وبدون مواد دهنية، وقد يكتفى فيه بالفلفل الحريف. هذا إضافة إلى حساء الطحين الذي يعد في الغالب بالشحم الملبس وبالفلفل كذلك. ولكن فرقاً شاسعاً بين هذا النوع القروي من الحساء

والحريرة الوجدية (والحضرية المغربية على العموم) التي تتزاحم فيها أصناف عديدة من التوابل والخضروات مع الحمص والعدس وقطع اللحم والبيض.

وكما يختلف حساء فجيج عن «الحريرة» المغربية يختلف البطيخ في تلك المدينة الصحراوية عنه في أماكن أخرى، خصوصاً مدينة بركان المشهورة ببطيخها الأصفر الشديد الحلاوة الذي كان هو السائد في عاصمة المغرب الشرقي. كان البطيخ في فجيج فاقد الحلاوة تماماً، وكان يؤكل عقب وجبة التمر مباشرة، إما ناضحاً «حرحراً» أو قثاء. وعندما أخذت جدة صاحبنا من أبيه تتردد عند أبنائها في وجدة، ثم في الدار البيضاء بعد ذلك، كانت تمتنع تماماً عن أكل البطيخ وتقول: «سر البطيخ أن يؤكل مع التمر، فكيف أجمع حلاوة التمر إلى حلاوة بطيخكم».

أما الخبز «خبز الفران» فقد كان هو الآخر من المعطيات الجديدة على صاحبنا. لقد عرف في مسقط رأسه ومنذ طفولته المبكرة الخبز «البولانجي» (= على الطريقة الأوروبية). فقد كان والده صاحب مخبزة تصنع هذا النوع من الخبز، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. غير أن «خبز الفران» كما تعرف عليه في وجدة كان خبزاً منزلياً يختلف تماماً عن الخبز المنزلي في مسقط رأسه. لقد كان أهل فجيج يعجنون الخبز ويطهونه، بعد أن يختمر، في مطاه عارية مصنوعة من الطين المتماسك كالفخار، فوق موقد يغذيه الحطب. ولم تكن طريقة إعداد «البغرير» و «الثريد» تختلف عن الخبز الخمير إلا بدرجة ليونة العجين ومدة الدلك... أما في وجدة فقد كان الخبز يعجن ويخمّر في المنزل ثم يرشم بعلامة خاصة ويوضع على ألواح يحملها الأطفال عادة على رؤوسهم ذاهبين به إلى فرن الحي حيث يطهى مع خبز الجيران. وكان صاحبنا يصر على أن يتولى هو حمل الخبز إلى الفرن، منفرداً أو مع أصغر أبناء خالة أبيه الذي كان في مثل سنه. لقد كان عالم الفرن عالماً خاصاً: تتجمع الصبية على باب الفرن ينتظرون دورهم صامتين أو متبادلين للأخبار والأحاديث، مشدودين إلى حركات «الفرنتشي» الفائقة السرعة: يدخل الخبز ويخرجه من الفرن بمهارة فائقة وحركات مثيرة للانتباه. ولعل أكثر ما كان يثير اندهاش صاحبنا هو أن «الفرنتشي» لم يكن يجد أية صعوبة في التعرف على خبز كل عائلة على حدة مهما بلغ عدد الخبزات وعدد الزبناء، وذلك رغم الضجيج وضيق المكان، وتشابه العلامات.

على أن الأكلة التي كانت تثير استغراب واندهاش صاحبنا أكثر من غيرها هي أكلة «الببوش» (الحلزون). كان صاحبنا يعرف هذا الحيوان في فجيج، لكنه كان يعتبره كعادة أهل البلد من الكائنات الحية التي لا تؤكل، ليس فقط لأن النفس

والحشرات... كان ينفر إذن من وجبة «الببوش» ويبدي تقززه منه بينما كانت خالة أبيه وابنتها تردان عليه، في جو من الدعابة والضحك: «الببوش أفضل ألف مرة من الجراد الذي تأكلونه في الصحراء»، فكان صاحبنا يرد بعنف: «لا. لا... الجراد ألذ وأفضل ألف مرة..» كيف لا يدافع صاحبنا عن الجراد وقد كان يخرج هو وأصدقاؤه يجمعونه في الصباح الباكر عند هجومه على المدينة ويأتون به في أكياس إلى منازلهم ـ كما يفعل الرجال كذلك ـ لتغليه النساء في الماء داخل قدور كبيرة، حتى إذا سلق كفاية وضع على أواني الطعام فتهافت الجميع عليه بنهم: تؤخذ الجرادة ويزال رأسها ومعه أحشاؤها فضلاً عن أجنحتها وسيقانها المشوكة. وقد لا يحتفظ الآكل إلا ببطنها الذي يمتد طويلاً إلى الوراء، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بأنثى الجراد إذ يحتوي هذا القسم من جسمها على عدد لا يحصى من بيضها الأصفر اللذيذ.

أهل الصحراء يُعيّرون أهل المدن بأكل الحلزون.. وأهل المدن يعيرون أهل الصحراء بأكل الجراد... فعلاً: «الناس فيما يعشقون مذاهب» كما يقول المثل. ولكن «مذاهب الناس» في هذه الأمور كما في غيرها ليست مجرد ميول ذاتية أو مزاجية، بل هي أساساً ثقافات، أو على الأقل تعبير عن مراتب أو تراتبات في الثقافة الواحدة. والحق أن الأذواق ليست ميولات فطرية، بل تصنعها المواد الغذائية المتوفرة. إن الحفر الأركيولوجي، أو أركيولوجيا الثقافة، يظهر أن البيئة وخصوصيتها الطبيعية الاقتصادية هي التي تقرر في إقبال أهل ناحية على أكل الحلزون والنفور من الجراد، واشمئزاز أهل ناحية أخرى من هذا وعشقهم لذاك. إن الجراد معطى صحراوي كما أن الحلزون معطى بحري، ومدينة فجيج هي إحدى بوابات الصحراء بينما مدينة وجدة على مسافة قريبة من البحر.

ومع ذكر البحر تقفز إلى وعي صاحبنا مفارقة كانت تثير استغرابه وتعجبه: كان كل شيء في وجدة يبدو له كبيراً جداً، أكثر من المعتاد. شيء واحد كان أصغر بما لا يقاس من مدلول الاسم الذي يطلق عليه. إنه ما يسميه الوجديون: «البحر»، وهو ذلك الحوض من الماء الموجود في حديقة صغيرة للزينة أمام بناية البريد. ومع أن صاحبنا لم يكن قد رأى البحر بعد، رأي العين، فإنه كان يتخيله أكبر كثيراً من صهاريج فجيج ومن «المرجة» التي يتجمع فيها ماء وادي زوزفانة في مكان السد

بـ «أترفيعة»... فكيف يجوز تسمية هذا الحوض بحراً وأبعاده لا تتعدى بضعة أمتار طولاً ومثلها عرضاً وأقل من ذلك عمقاً؟

وباستثناء هذه المفارقة كانت مدينة وجدة تبدو لصاحبنا كبيرة ضخمة. فالشوارع طويلة عريضة والدكاكين كثيرة، والناس أكثر من أن يحصوا، والمتحركون والواقفون منهم أكثر من الجالسين. وذلك على عكس ما اعتاده في مسقط رأسه، حيث المارة قليلون. أما الأزقة المسقوفة فمنعدمة تماماً، وكذلك «مجامع» القيل والقال. فلم يكن الناس في وجدة يجلسون على جانبي الطريق، لا في «مجمع» ولا منفردين كما كان الشأن في فجيج. والشيء الذي شد انتباه صاحبنا في شوارع مدينة وجدة وساحاتها المركزية هو «المقاهي» التي كانت تعج بالناس، يشربون الشاي أو القهوة ويستمعون لأغانٍ يذيعها مكبر للصوت مركب على باب المقهى، إما نقلاً عن إذاعة وإما عن أسطوانة.

لقد كان ذلك من الأمور الجديدة تماماً على صاحبنا، إذ لم يكن في فجيج، زمن طفولته مقاه أو أغان أو مكبرات صوت. كان الناس يشربون الشاي في الدكاكين، اثنين أو ثلاثة لا أكثر. أما في وجدة فالأمر يختلف تماماً، فالصخب وحركات الراجلين والدواب والعربات والسيارات والموسيقى وأصوات المغنين والمغنيات المنبعثة من المقاهي، كل ذلك كان يقع على مسافة بعيدة جداً من هدوء مدينة فجيج ورتابة الحياة فيها فضلاً عن غياب الموسيقى والأغاني غياباً شبه تام إلا في المناسبات وخاصة الأعراس.

يتذكر صاحبنا جيداً أن أكثر الأغاني رواجاً يومئذ في وجدة أغاني محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان من جهة، وأغاني «الشيخ حماض» (= حماد) المغني الجزائري الذي كان على كل لسان، والذي تتميز أغانيه بصوت نايه الذي يشد الألباب إليه شداً. أما موسيقى «أعلوي» التي تؤدى صامتة بواسطة مزمار خاص يسمى «الغايطة» والتي كانت الموسيقى السائدة، إن لم تكن الوحيدة في فجيج، فلقد كانت هي الأخرى حاضرة ومنتشرة في وجدة. وكان يحلو لصاحبنا أن يقف مع الواقفين يستمع إليها في «الحلقات» التي كان يقيمها، خارج صور سيدي عبد الوهاب، أولئك الحَوّاؤون الذين يقدمون لجمهورهم ألعابهم وأعاجيبهم، بما في ذلك حمل الحيات والثعابين على الرقص على نغمات الناي أو المزمار...

ومع أن صلة صاحبنا بموسيقى «أعلوي» ترجع إلى طفولته الأولى إذ كان يقف

منافس الشيخ «محمدين» في فجيج يومئذ على هذه الموسيقى، ومع أنه كان كجميع الأطفال يصنع من القصب العادي المعروف أو من قصب البصل هيكلاً لمزمار ومن قصب القمح «زمارة» تركب فيه فيصير كـ «الغايطة» فإن المزمار يبقى دائماً مجرد مزمار.. و «الغايطة» نفسها ليست سوى مزمار، لا أقل ولا أكثر. أما الموسيقى التي تعرف عليها صاحبنا في وجدة، لأول مرة، سواء في صورة أغان أو على شكل موسيقى صامتة فشيء آخر تماماً... إن عالم فجيج كان عالم الندرة والاكتفاء الذاتي... حتى في الموسيقى والغناء. أما عالم وجدة فقد كان يبدو لصاحبنا، في أول عهده به، عالم الكثرة اللامحدودة، عالم الاختلاط والصخب و «الحلقات» والحركة والتنوع... في الغناء والموسيقى كما في الأمور الأخرى.

ومع أن صاحبنا كان معروفاً بطبعه الهادىء فإنه، في وجدة وبالضبط في بيت خالة أبيه، كان يقوم من حين لآخر بـ «حماقات» من تلك التي يأتيها الأطفال للفت الانتباه إليهم وبيان شطارتهم. وهكذا فلكي يبرهن لهم ـ ربما ـ أن لديه هو الآخر القادم من فجيج الصغيرة ما يقدمه كـ «شطارة» لا يستطيع أهل المدن الكبيرة الإتيان بمثلها، كان يتخفى في أماكن لا تخطر لهم على بال ويصيح: «لو عرفتم أين أنا؟» فكانوا يجنون في البحث عنه إذ لم يكونوا يكتشفونه.. حتى إذا بدأ القلق يستولي عليهم وأخذت خالة أبيه تقول: «يا بردي ماذا سأقول لأبيه إن دخل الآن ولم يجد ابنه؟»، حينذاك فقط يفاجئهم بالصعود من البئر ـ وكان قد اعتاد النزول فيه شأن أطفال فجيج عموماً ـ أو يطل عليهم من وراء الجدار على السطح حيث يكون قد تدلى إلى جهة الجيران معلقاً على أطراف أصابعه، وأحياناً يخرج من مكان ما في المطبخ... هكذا كان ينتصر على «أهل المدن في عقر دارهم».

ـ ٤ ـ

كان والد صاحبنا يتردد على منزل خالته يومياً. ومن حين لآخر كان يصحبه معه، تارة إلى محطة الحافلة التي تربط بين وجدة وفجيج والتي كان القيّم عليها شريكاً له في بعض أعماله التجارية، وتارة يأخذه معه إلى دكان بسوق سيدي عبد الوهاب كان صاحبه صديقاً له، يبيع الجرائد. وكان والد صاحبنا من المداومين على قراءة جريدة **العلم** المغربية وجريدة **البصائر** الجزائرية. كان يقرأهما على طريقته الخاصة، بدون مراعاة لـ «أبسط قواعد النحو»، فكان يرفع المجرور وينصب الفاعل

ويكسر المفعول به بصورة تستفز الأذن، وذلك إلى درجة أن صاحبنا ما زال يتذكر كيف كان يتضايق من هذا النوع من القراءة، خصوصاً وكان قد أتقن مبادىء النحو في المدرسة بفجيج، إذ كان يومئذ في الصف الرابع الابتدائي.

ومن الأماكن التي اصطحبه والده معه إليها والتي بقيت ذكراها حية في ذهنه: «مكتبة الدرفوفي» (ممثل حزب الاستقلال آنذاك في وجدة وأحد الشخصيات المرموقة بالمدينة). لم يكن صاحبنا آنذاك يدرك مكانة هذا الرجل الوطني المناضل وخصوصية علاقة والده به، إذ كان والده من الأطر الحزبية النشطة بالمنطقة ـ كما سيعرف فيما بعد. ولذلك فإن ما بقي مقترناً باسم المرحوم الدرفوفي في ذهن صاحبنا هو ذلك الكم من الكتب المصفوفة على رفوف دكانه والذي لم يسبق له قط أن شاهد مثله. لقد اعتاد صاحبنا على مشاهدة بضعة كتب ـ ثلاثة إلى عشرة على الأكثر ـ في رف بمنزل أهله لأمه، أو في مكتبة مدير المدرسة.. ولكنه لم يشاهد قط من قبل هذا الكم من الكتب التي كانت تغطي جدران مكتبة الدرفوفي خصوصاً وقد كانت في حجم دكانين. لقد شد منظر هذه الكتب بصر صاحبنا شداً، رغم أنها لا شيء بالقياس إلى ما يشاهده الأطفال اليوم في المدارس والمكتبات والأكشاك وعلى قارعة الطريق. إن صاحبنا لم يكن يتوفر في مسقط رأسه إلا على كتاب التلاوة (**التلاوة المصورة اللبنانية**) وكتاب النحو (**النحو الواضح**) وآخر في الأشياء (لا يذكر اسمه) إضافة إلى كتاب **الأخلاق** لأحمد أمين والذي سبقت الإشارة إلى قصة اقتنائه له. ولذلك فهو لا يستطيع الآن أن يتبين حقيقة شعوره آنذاك وهو مشدود البصر إلى رفوف المكتبة، ولكنه يتذكر جيداً أن المرحوم الدرفوفي كان يبتسم له وهو يمد حزمة من الأوراق إلى والده أخرجها من بين كتب في أسفل رف، وأن والده دس تلك الأوراق بسرعة في حزامه تحت جلبابه بينما وضع بعضها داخل عمامته (قد عرف صاحبنا فيما بعد أنها كانت مناشير وطنية)، فعل ذلك وهو يقول لصاحبنا: «السي الدرفوفي صاحبي، وسيعطيك كل ما تحتاجه من الكتب عندما تنجح في الشهادة (الابتدائية). أما الآن فيكفي أن تقرأ هذا». وتسلم كتاباً من صاحب المكتبة لا يذكر اسمه ولا موضوعه.

هناك ذكرى أخرى لا يستطيع صاحبنا أن يتحدث عن زيارته الأولى لوجدة دون أن ينتصب مشهدها السمعي البصري أمامه انتصاباً يضايق غيره من المشاهد. إن العنصر الرئيسي في هذا المشهد هو تلك الجملة التي همس بها والده في أذنه وسط ظلام السينما وسكونها قائلاً: «انظر ما كان يفعل الإنكليز أولاد الحرام، في مصر».

ذات يوم بعد الظهر إلى سينما «كوليزيه». وكل ما يتذكره صاحبنا من هذه التجربة الفريدة هو تلك الجملة التي همس بها إليه والده حينما ظهر مشهد من «المشاهد الغرامية» في الفيلم (ممثل يقبل ممثلة في فمها قبلة طويلة).

لم يكن صاحبنا قد شاهد قبلة من هذا النوع. كانت القبل التي تعود عليها إما من نوع تقبيل رأس الوالدين أو كبار الأقارب عموماً، وإما من نوع تقبيل العائد من السفر على كتفه. أما تقبيل اليد فلم يكن يمارس قط عند أهل فجيج، ولا كذلك تقبيل الخنك. أما تقبيل الفم فكان أبعد شيء عن تصور صاحبنا. لقد اعتاد أن يرى الطيور تتلامس بمناقيرها، كما تفعل أنثى الطير في تغذية صغارها. أما تقبيل الفم، عند بني الإنسان، فذلك ما لم يسبق له قط أن شاهده وهو في الحادية عشرة من عمره. ومع ذلك كله فلقد أدرك، بنوع من الغموض والتردد، أن ما أشار إليه والده وما عناه بتلك الجملة التي همس بها في أذنه، لا بد أن يكون شيئاً من الأشياء التي تدخل في عداد «المحرمات»: فالمرأة (= الممثلة) شبه عارية والرجل يحيط بيديه على ظهرها ثم يضمها إليه ويقبلها في فمها وهي مسترخية راضية راغبة...

وإذا كان صاحبنا لا يتذكر بالضبط رد فعله أمام هذا المشهد، لكون الجملة التي همس بها والده في أذنه قد أيقظته من ذهوله، بسبب ما كان يرى، لينشدّ سمعه بل كيانه كله إلى «... الإنكليز أولاد الحرام»، فإنه يستطيع الآن أن يجزم بأن رد الفعل الطبيعي الذي كان يصدر منه ومن أبناء جيله أمام مثل هذه المشاهد، التي تكررت أمامهم بعد ذلك، ظل لسنوات، من النوع الذي يعبر بصورة تلقائية عن الاستهجان والإحساس بالحرج: إدارة الوجه يميناً أو شمالاً، أو الانحناء وتركيز النظر على الأرض، مع ما قد يصحب ذلك من عبارات معروفة مثل «أعوذ بالله...».

وعلى كل، فهو يتذكر بوضوح أن العبارة التي همس بها إليه والده بقيت ترنّ في أذنه، وأنه قَبِل بشيء من التردد أن يكون «الإنكليز»، فعلاً، هم الذين حملوا المصريين على مثل ذلك المشهد الذي أراد والده صرفه عنه، إذ إنه ما لبث أن تبين له ما تنطوي عليه تلك العبارة من تبرير. ومع ذلك فلقد كان عليه أن يصدق مضمون العبارة، في عالم ذاكرته، حينما تقدم به العمر قليلاً وأخذ يسمع من رجال الحركة الوطنية ومن معلميه في المدرسة، وعلى رأسهم الحاج محمد فرج، أن حجاب الفتيات وغيره من مظاهر «الانحطاط» كان من عمل «الفرنسيين» الذين أرادوا أن يبقوا على

المغرب متخلفاً مستعمراً. لقد كانت الحملة ضد الحجاب، ومن أجل السفور وضد زيارة الأضرحة وسلوكيات الشعوذة... الخ إحدى الأنشطة الرئيسية للحركة الوطنية يومئذ. ولا يستبعد أن يكون والده ـ الذي كان من أطر الحركة الوطنية كما أشرنا ـ يعتقد فعلاً أن المستعمرين الإنكليز في مصر كانوا وراء أنواع السلوك غير اللائق الذي يشاهده الناس في الأفلام المصرية، تماماً مثلما ساد الاعتقاد آنذاك في صفوف الجماهير الشعبية التي تؤطرها الحركة الوطنية بأن المستعمر الفرنسي هو المسؤول عن جميع مظاهر الانحطاط في الحياة المغربية!

الفصل الخامس

ـ ١ ـ

لا يتذكر صاحبنا كم كانت مدة إقامته الأولى بوجدة، ولكن يخيل إليه أنها دامت قرابة شهرين، فقد عاد منها إلى مسقط رأسه فجيج وهو يتقن «العربية» (الدارجة الوجدية) بعد أن لم يكن يتكلم سوى الأمازيغية، شأنه شأن أهل فجيج عموماً. أما العربية الفصحى التي كان قد بدأ يتعلمها في المدرسة فقد كانت ـ ولا تزال ـ لغة القراءة والكتابة، وليس لغة البيت والشارع. وتزداد المسافة بينها وبين العربية الدارجة اتساعاً وعمقاً في نفس الطفل إذا كان لا يعرف غير الأمازيغية، نظراً لانقطاع الجسور بين هذه وتلك. فالأمازيغية لغة البيئة المحلية، لغة المحسوس الحاضر. . أما العربية الفصحى فهي لغة القرآن ـ الذي يقرأ ويتلى دون فهم في الغالب ـ ولغة «العلم» الذي يحفظ بدون فهم تقريباً، وأيضاً فهي لغة المجرد. أما «المحسوس» فغائب عنها أو مجهول لأنه ينتمي إلى بيئة أخرى ومحيط آخر (عرب الجزيرة العربية).

والحق أن اللغات الثلاث، الأمازيغية والدارجة العربية والعربية الفصحى، كانت ضرورية كلها للقدرة على التواصل والكلام في مجال مدرسي يقع في منطقة يتكلم أهلها الأمازيغية أصلاً. فهذه الأخيرة لغة البيئة المحلية والإحساسات الذاتية. ولا يستقيم الإفصاح عن مثلها في بيئة حضرية عصرية أو عن معاني تنتمي إليها، إلا بتوظيف مفردات من الدارجة العربية، تماماً مثلما يفعل العرب اليوم ـ وبالأمس كذلك ـ حينما يتحدثون حديثاً ينتمي إلى مجال الثقافة والفكر، فهم لا يستطيعون الاكتفاء بالدارجة وحدها، بل لا بد من اللجوء إلى كلمات من الفصحى، خصوصاً

عندما يتعلق الأمر بمفاهيم تحيل إلى المعاني المجردة.

وكل من يدعي أنه يستطيع الاكتفاء بالأمازيغية في البيئة الحضرية وعالم الفكر، فهو كمن يدعي الاكتفاء بالدارجة في حديثه إلى نفسه أو إلى الناس عن عالم اليوم وأشيائه المادية والفكرية. والذين لا يلجأون إلى العربية الفصحى من المتحدثين بالدارجة مثلهم مثل من لا يوظفون الدارجة والفصحى معاً من المتكلمين بالأمازيغية، هؤلاء وأولئك لا يستطيعون الكلام أبداً عن أشياء عصرنا المادية والمعنوية، اللهم إلا إذا خلطوا كلامهم بالفرنسية أو الإنكليزية أو الإسبانية أو غيرها.

هذا الواقع اللغوي الذي تطبعه الازدواجية اضطراراً كان يفرض نفسه بقوة على معلمي وتلامذة مدرسة النهضة المحمدية يوم كان صاحبنا تلميذاً فيها. ومع أن صاحبنا يذكر جيداً أنه كان قد تعلم العربية الدارجة من ابن خاله الثاني (وكان أخاً لأمه من جهة والدتها وحدها) الذي كان في مثل سنه والذي عاد مع أبيه وأمه إلى فجيج لقضاء بعض الوقت قادمين من غيليزان بالجزائر حيث كانوا يقيمون منذ مدة، فإن مدة أربعة أو خمسة أعوام التي كانت تفصل بين الحدثين، كانت كافية لتجعله ينسى جل ما تعلمه من «العربية». ومعلوم أن الأطفال يتعلمون اللغات بسرعة ولكنهم ينسونها أيضاً بسرعة إذا لم يستعملوها.

ويذكر صاحبنا في هذا الصدد أن أهله كانوا يحكون، باستغراب وتعجب، للأقارب والجيران، كيف أن ابنهم، هذا، نسي الأمازيغية وتعلم العربية، بينما حصل العكس مع ابن خاله، وذلك بعد مدة وجيزة من معاشرتهما أحدهما للآخر. لقد كانت ملازمة أحدهما للآخر طوال النهار في البيت وفي الشارع خلال تلك المدة كافية لتطويع لسانه وتحويله من الأمازيغية إلى العربية.

ومهما يكن فإن مسألة اللغة لم تكن تمثل لصاحبنا أية مشكلة، لا على صعيد التعلم ولا على صعيد مطاوعة اللسان لطريقة النطق والإصاتة. لقد حفظ ما يقرب من ثلثي القرآن في المسيد وهو في التاسعة من عمره، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة والمحادثة بالفرنسية ما بين الثامنة والعاشرة في المدرسة الفرنسية، وتعامل مع العربية الفصحى ـ إلى جانب الفرنسية كلغة ثانية ـ طوال المرحلة الابتدائية وما بعدها.. أما الأمازيغية فقد كانت لغة ـ الأم عنده، ولم تبدأ الدارجة المغربية تحتل مكانتها كلغة ـ أم ثانية ـ إن جاز التعبير ـ إلا في حدود الحادية عشرة من عمره حينما انتقل نهائياً

المرحلة من الإنصات أولاً إلى ما تحتفظ به ذاكرته عن زيارته الثانية إلى وجدة.

بعد عامين تقريباً، وبالضبط في بداية العطلة المدرسية الصيفية سنة ١٩٤٩، سافر صاحبنا مرة ثانية إلى وجدة إثر حصوله على الشهادة الابتدائية. لم يذهب به أبوه هذه المرة إلى بيت خالته كما كان الشأن في المرة السابقة، بل لقد فضل أن يسكن معه في منزله الصغير الذي كان قد اشتراه ويسكنه هو وأخوه الأوسط الذي كان خياطاً بوجدة كما ذكرنا قبل. كانت الدار صغيرة: غرفة واحدة ومطبخ وصحن صغير مفتوح على السماء. وكانت على مسافة ثلث ساعة، على الدراجة، من دكان عمه. كان صاحبنا يقضي جزءاً من نهاره في هذا البيت: يقوم بنظافته ويسهر على إعداد الطعام لعمه وصديق له كان يسكن معه، ولم يكن أي منهما متزوجاً: فعمه كان قد طلق زوجته الثالثة أو الرابعة في فجيج. وأما أبوه، الذي كان قد طلق زوجته الثانية أو الثالثة بعد أم صاحبنا، فكان قلما يأكل أو ينام في هذا المنزل في تلك الفترة. أما بقية نهار صاحبنا، خاصة بعد الظهر، فكان يقضيها مع عمه في دكان الخياطة يساعده في هذه المهنة التي سرعان ما صار يتعلمها: يركب الأزرار على القمصان والبذلات ويكويها أو يساعد في ذلك، وفي نفس الوقت يراقب كيف يفصل عمه الملابس ويتعلم على ماكينة الخياطة، التي كانت تدار بالرجل، عندما لا يكون عليها عمه أو أحد مساعديه، أو يقوم بسخرة إلى هذا المكان أو ذاك...

لم يكن مقام صاحبنا في وجدة هذه المرة غنياً بالأحداث، أو على الأصح لا تحتفظ له ذاكرته عنه بذكريات قابلة للحفر فيها، فلقد صارت وجدة عنده مألوفة، والإنسان لا يتذكر عادة اليومي المألوف وإنما يتذكر ما يستجد وما يثير الدهشة... مشهد واحد رئيس يتراءى أمامه الآن وسط فراغ مظلم، يحاكي الظلام الذي كان يحيط بالأنوار التي كانت تلألأ وسط المشهد نفسه الذي جرى في ليلة من ليالي ذلك الصيف.

كان حفلاً حضره جمع من أصدقاء والده وأقاربه. ولا يتذكر صاحبنا بالضبط كيف وصل إلى المنزل الذي أقيم فيه هذا الحفل ولا الشخص الذي قاده إليه. كل ما يمثل أمام عينيه من هذه الذكرى هو أن المنزل كان يقع في أطراف المدينة بجوار البساتين وكان غاصاً بالرجال، يعرف كثيرين منهم: بعضهم جالسون وفي أيديهم كؤوس الشاي وآخرون يذهبون ويجيئون، وأربعة أو خمسة يرقصون وسط الحفل على

موسيقى «أعلوي».. كانت هذه الموسيقى كافية وحدها ليفهم صاحبنا أن الأمر يتعلق بعرس.

فعلاً، لقد أخبره أحد أقارب والده، وكان قد لازمه منذ وصوله إلى الحفل أن الأمر يتعلق بعرس أبيه الذي «تزوج من هنا»، يعني من وجدة. كان هذا القريب يمرر إليه الكلمات بمقدار وكأنه يراقب ردود فعله. ولا يتذكر صاحبنا أنه صدر منه رد فعل خاص. إن كل ما يستطيع أن يستعيده الآن هو نوع من الشعور الحيادي، لا هو فرح ولا هو غضب، لا هو انشراح ولا هو كآبة.. ما يستطيع أن يتبينه في طيات هذا الشعور هو شيء من الاستغراب يمكن أن يعبر عنه اليوم من خلال التساؤلات التالية: لماذا لم يخبره أبوه أو عمه بمشروع الزواج هذا؟ لماذا يقاد إلى حفل العرس دون أن يعلم أين هو ذاهب؟ ولماذا هذا الخوف، منه أو عليه؟ ألم يسبق لأبيه أن تزوج وطلق على الأقل مرتين، وأمه ـ أم صاحبنا ـ مطلقة منه؟ ألم يكن عمه مزواجاً أيضاً؟ ألم تكن تأتي به عمته الصغرى من بيت أهله لأمه لحضور حفل زواج أبيه أو عمه يوم كان في مسقط رأسه طفلاً لا يفهم معنى الزواج؟ إن الزواج والطلاق بالنسبة له كانا من الأمور التي يفقدها التكرار كل سر وكل معنى.

وإذا كانت هذه التساؤلات تبدو اليوم مبررة ومشروعة فإنها كانت في البيئة التي نشأ فيها صاحبنا غير ذات موضوع. لقد كان «مشروع الزواج»، أياً كان، من الأمور التي يخفيها الآباء عن الأبناء، بل الكبار عن الصغار عموماً. إن الزواج وما يتعلق به كان ـ وما يزال إلى حد كبير ـ من الأمور التي تعامل معاملة الأسرار حتى ولو لم تكن فيها أسرار...

وعلى كل، فصاحبنا لا يتذكر أنه غادر ذلك المكان تلك الليلة. كل ما يتذكره هو أن ذلك المنزل الذي أقيم فيه حفل العرس صار منذ تلك الليلة منزل الأسرة. لقد كان أوسع كثيراً من المنزل الآخر ـ الذي يستطيع الآن أن يصفه بـ «منزل العزّاب». كان هذا المنزل الجديد يقع على الطرف الجنوبي من المدينة، مجاوراً للبساتين والحقول، يشتمل على ثلاث غرف وصحن كبير وبئر. وكان الحي هادئاً لا يسمع فيه إلا نباح الكلاب، خاصة في الليل. ومع أنه كان بعيداً نسبياً عن مركز المدينة ـ نحو نصف ساعة على الدراجة ـ فإن صاحبنا كان يقوم بما يلزم من السخرة على دراجته دون ملل أو كلل. لقد كان هو المكلف بتموين المنزل بالخضر والمواد الغذائية اليومية. لقد كلفه أبوه بذلك، لا على سبيل التسخير واستعمال الأطفال، بل ثقة به وبكفاءته، وأيضاً «تعظيماً» لشأنه ـ ربما ـ أمام الزوجة الجديدة وإشعاره بأن هذا

«مؤشرات» كانت عبارة عن رسائل بـ «الشفرة» العائلية: تارة تأتيه من أبيه وتارة يلتقطها من الزوجة نفسها التي أصبحت تعتبره ابناً لها رغم أن فارق السن بينهما لم يكن يرقى إلى هذا المستوى. وعلى كل، فوضعية هذا «الابن» لم تتغير، بل لقد تعززت أكثر. لقد أسند إليه أبوه مهمة الصرف والنفقة، إذ كان يزوده كل مرة بمبلغ من المال يصرف منه لأسابيع... وتلك مهمة كان يقوم بها عادة ـ على الأقل في عرف الفجيجيين ـ أبو الزوج وأمه.

لم يخطر ببال صاحبنا قط، حتى هذه اللحظة، أن يتساءل: لماذا لم يحضر والد أبيه ولا والدته حفل العرس؟ إن هذا السؤال كان من اللامفكر فيه تماماً، فالزواج خارج فجيج، أو من امرأة من غير بنات فجيج ونسائه، كان من الأمور التي لا يقدم عليها إلا أولئك الذين كانوا في ذلك الوقت في مثل حال من نصفهم اليوم بـ «المتحررين» أو «العصريين» أو «الحداثيين» أو ما في معنى هذه الأوصاف. ولم يكن أمثال هؤلاء كثيرين بين صفوف الفجيجيين في ذلك الوقت، إذ كانوا يعدون على الأصابع.

لقد بدأ سكان فجيج ينفتحون على العالم الخارجي من خلال العمل في المدن الجزائرية المجاورة التي نقل إليها الاستعمار الفرنسي بعض بنيات الحداثة الأوروبية. وكانت الأمهات يخشين على أبنائهن العاملين في الجزائر ـ من «الشرقيات» (نساء أهل الشرق = الجزائريات). وها هم أولاد عابد، الذين كانوا من بين القلائل الذين تفتحوا على العالم الخارجي من خلال التجارة مع وجدة يتزوجون بـ «الوجديات». وهذا أمر كان شديد الوقع على نفس جدة صاحبنا لأبيه. فلقد كانت تشتكي دائماً وبغضب، في أحاديثها مع صاحبنا ـ عندما صار يتردد على مدينة وجدة ـ من كون «يامنة»، أختها من أبيها التي نزل عندها صاحبنا بوجدة وعاشر أبناءها، قد اختطفت أمها الوجدية منها أباها: لقد كانتا أختين من جهة الأب فقط. ولم تكن جدة صاحبنا تعترف بهذه الأخوة الناقصة، لا بل «المغصوبة»... وأكثر من ذلك لا بد أن تكون هذه الأخت هي التي دبرت هذا الزواج لـ «تخطف» منها ابنها مثلما فعلت بأبيها.

لم يكن من الممكن إذن استدعاء هذه الأم لحضور حفل زواج ابنها، هذا الذي «خطفته» الوجديات اللائي سبق أن خطفن أباها. أما أبوه الذي كان قد بدأ مرحلة الشيخوخة (في نحو السبعين) فلم يكن يُبدي شعوره إزاء مثل هذه الأمور. لقد كان محافظاً فعلاً، ولكن في غير تشدد ولا تشنج، لا يحضر حفلات الأعراس،

وبالخصوص عندما يتعلق الأمر بأولاده: لقد كان ذلك مما لا يليق بوقار الوالد.

هذا ويمكن أن نلاحظ في هذا المقام أن الأمهات الفجيجيات اللائي كن يكرهن، وبغضب، أن يتزوج أبناؤهن من الوجديات، لم يكن يحملن وحدهن مثل هذا الشعور العدائي لبنات ونساء المحيط الخارجي «المتحضر» المجاور لبيئتهن. لقد كانت الأمهات الوجديات أيضاً يكرهن، وبغضب كذلك، أن يتزوج أبناؤهن من «الغربيات»، من بنات تازة وفاس وما إليهما من المدن التي تشكل المحيط الخارجي «المتحضر» المجاور لمدينة وجدة. والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة لموقف الأمهات «الغربيات»، فاسيات ورباطيات الخ... موقفهن من زواج أبنائهن من «الأوروبيات». وسيكون من التفسيرات الساذجة السطحية النظر إلى هذه الظاهرة بوصفها تعبر عن رد فعل تحركه «الغيرة» أو ما في معناها من سلوكيات انكماشية ومكيانيزمات الدفاع عن «الأنا» و «الهوية»، الدفاع الذي يقوم به الذي يشعر بالضعف أو بالتهديد إزاء «الآخر»...

إن الحفر الأركيولوجي يكشف عن أن الأمر يتعلق هنا بظاهرة تشي بوجود تراتب ثقافي ـ أو طبقات إن صح التعبير ـ في الثقافة الواحدة. إن اختلاف ثقافة «البادية» (التي تعني هنا كل ما هو خارج المدن، أعني خارج أحيائها الأرستقراطية التقليدية) عن ثقافة «المدينة» (ثقافة الأحياء الأرستقراطية تلك) ظاهرة ظلت ترافق تاريخ المغرب منذ أقدم العصور إلى الآن. وقد أولى ابن خلدون، كما هو معروف أهمية بالغة لهذا الاختلاف بين «البدو والحضر»، بين «خشونة البداوة ورقة الحضارة»، في تحليلاته البيئية الاجتماعية الاقتصادية الثقافية التي أطلق عليها اسم: «علم العمران». وبما أن التطور العام، الاجتماعي الاقتصادي السياسي الثقافي، في المغرب كما في بلدان العالم العربي والإسلامي وما يسمى بـ «العالم الثالث» عموماً، كان يتم، إلى حدود منتصف القرن الماضي، بخطى بطيئة مع مد وجزر، فلقد بقيت ثقافة «خشونة البداوة» وثقافة «رقة الحضارة» معطيين متمايزين متكافئين كتمايز وتكافؤ سفحي الجبل الواحد. وعندما بدأ المد الأوروبي الحداثي ينتشر ويتغلغل من خلال الاستعمار، وبدأ هذا الأخير يغرس بنيات الحضارة الحديثة في الأقطار المستعمرة مركزاً على «المناطق النافعة»، أخذ مركب ثقافي آخر، أوروبي «حداثي»، يترسب شيئاً فشيئاً فوق ثقافة «رقة الحضارة» وعلى هوامشها، ليتحول «الجبل» الثقافي ذو السفحين إلى ما يشبه مقطعاً جيولوجياً من طبقات ثلاث: مقطع ثقافة «خشونة البادية»، ومقطع ثقافة «رقة الحضارة»، ومقطع ثقافة «العصر الحديث».

وإذن فموقف الأمهات في فجيج من البنات الوجديات مثله مثل موقف الأمهات الوجديات من البنات الغربيات وموقف الأمهات في المدن الأرستقراطية المغربية من الزواج بالأجنبيات (الأوروبيات)، مواقف تعكس التراتب والطبقية في الثقافة المغربية، لا، بل عصوراً ثقافية متتابعة ومتدافعة، ليس على صعيد الواقع المعيشي وحسب بل أيضاً على صعيد الذكريات.

لنترك الواقع «الراهن» جانباً.. ولنعد إلى الذاكرة ومعطياتها.

ـ ٢ ـ

قبل سنة أو نحوها من زواج والد صاحبنا كانت تجارته قد تعرضت لنكسة خطيرة، لا بل لضربة قاضية. لقد كانت مساهمته في الحركة الوطنية، متنقلاً كإطار حزبي بين فجيج من جهة، ووجدة وبركان وأحفير من جهة ثانية، مصدر قلق للسلطات الفرنسية المحلية التي كانت قد دشنت آنذاك مسلسلاً من القمع العام الشامل في جميع أنحاء المغرب، فقامت بسلسلة من الملاحقات والمتابعات والنفي طالت معظم الأطر الوطنية النشطة.

في هذا الإطار تعرضت تجارة والد صاحبنا لضربة مميتة. فلقد اكتشفت عند شريكه بضائع «غير مرخص بها»: مواد غذائية وأثواب، من جنس البضائع التي كانت تشكل قوام التجارة في ظروف الحرب العالمية الثانية وبعدها، في هذه المدينة الحدودية. اعتقل شريك والد صاحبنا فاضطر هذا الأخير إلى صرف جميع ما كان بين يديه من أموال على المحامين وفي المحاكم والوسطاء ولدى رجال السلطة الفرنسية وذوي النفوذ فيها... وإذا كان قد تمكن بذلك من اتقاء الاعتقال والمحاكمة بتهمة «مخالفة القوانين التجارية» فإن السلطات الفرنسية لم تتردد في توجيه تهمة الانتماء لحزب الاستقلال إليه، وبالتالي نفيه إلى مسقط رأسه فجيج ـ التي عاد إليها هذه المرة مع زوجته الجديدة. لقد وضع تحت الإقامة الإجبارية وفرض عليه المثول يومياً في مكتب الحاكم الفرنسي لإثبات الحضور. وذلك ما فعلته سلطات الحماية الفرنسية مع معظم العناصر النشطة في الحركة الوطنية آنذاك. ولم يكن هذا النفي ليحول بينه وبين ممارسة النشاط الوطني في مسقط رأسه مع الوطنيين هناك، وفي مقدمتهم زعيم الحركة الحاج محمد فرج، مما جعل حاكم فجيج يعتقله ويودعه السجن بدون محاكمة، لا يغادره إلا ليعود إليه، طيلة ما يزيد عن سنة، لتقرر السلطات الفرنسية في النهاية

التخلص منه وإعادته إلى وجدة.

أما صاحبنا فقد قضى تلك المدة (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) مع والده في فجيج، وكان الحاج محمد مدير المدرسة قد فتح قسماً تكميلياً للتلاميذ الذين نجحوا في الشهادة الابتدائية، ومن بينهم صاحبنا. لم تكن الدراسة في هذا القسم منتظمة لعدم وجود الأساتذة فكان الحاج محمد، وبعض مساعديه من معلمي الابتدائي يتولون تدريس بعض المواد التراثية، الفقهية واللغوية والأدبية، إضافة إلى دروس في التاريخ القديم وحصص في الفرنسية والحساب. ومع أن صاحبنا يتذكر جيداً أن الدراسة كانت متقطعة غير منتظمة فإنه يدرك الآن، بناء على معطيات ذاكرته وحدها، أن تلك السنة لم تكن بالنسبة له مجرد سنة تكميلية، بل كانت في واقع الأمر سنة تأسيسية في حياته الثقافية.

إنه يدرك جيداً، ومنذ مدة ـ وهذا ما سبق التلميح إليه في فصل سابق ـ أنه إلى تلك السنة ترجع اللبنات الأولى في صرحه الثقافي، وبالتحديد على مستوى التعامل مع النصوص التراثية وبناء علاقة الألفة والمعاشرة معها من جهة، وعلى مستوى الكتابة واكتساب «الدربة» عليها وتحصيل ملكتها من جهة ثانية. إن عبارات ونصوصاً من **مختصر** خليل و**ألفية** ابن مالك وقصائد امرىء القيس وزهير ابن أبي سلمى وغيرها لا زالت تفرض حضورها في «حافظة» صاحبنا منذ تلك السنة التكميلية، فينطق بها لسانه كلما استدعتها المناسبة. وباستثناء قصائد كان يستظهرها لشوقي وحافظ ابراهيم والبارودي فإن نصوص النثر العربي الحديث، نصوص المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين وجرجي زيدان الخ... كان بعضها ينسي الآخر في ذاكرة صاحبنا لأنها لم تكن نصوصاً لـ «الحفظ» بل مجالاً للمطالعة الحرة، ومع ذلك فما تزال آثارها، أمام عين ذاكرته، «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد». كما تتراءى أمام ناظريه الآن، ومرة أخرى، مشاهد من دفاتر وأوراق كان يسودها من إنشائه كل يوم في موضوعات لا يتذكر منها شيئاً سوى أنها محاولات كتابية في موضوعات شتى: مذكرات، وصف... نظم الشعر... الخ.

وإذا أضفنا إلى ذلك انكبابه كل يوم، إلى درجة الولوع الشديد، على الجبر والهندسة وتمارينهما، مرجعه فيهما كتابان اقتناهما في وجدة، واحد بالعربية لمؤلف لبناني (فاخوري) وآخر بالفرنسية لمؤلفه (لوبوسي)، استطعنا أن نكون فكرة عن برنامجه اليومي الذي كان يضبطه جدول «استعمال الزمن» معلق على جدار غرفة الضيوف في بيت أهله لأبيه، وكانت قد تحولت إلى مكتب خاص به. كانت معظم

مراجع وكتب. لقد كان الحضور الأسبوعي إلى المدرسة، خلال تلك السنة التكميلية، محصوراً في بضع ساعات وبصورة متقطعة، مما ترك المجال واسعاً للعمل «العصامي»، خصوصاً في بيئة لم يكن فيها ما يستهلك وقت الفراغ غير اجتراره اجتراراً في «مجامع» على حافتي الأزقة تعاد فيها نفس المرويات والمشاهدات والقيل والقال وما جد أو ندر من تشبيهات «تومزيا»، كما بينا سابقاً. وكان صاحبنا عزوفاً عن هذه المجالس لا يرتادها إلا نادراً، ربما بسبب طبعه «الانطوائي»، بعض الشيء، وربما بتأثير ما امتلأت به طفولته من «صحبة» كبار السن: جده لأمه وجدته لأبيه وخاله وعماته. ولا بد من أن نضيف إلى ذلك تأثير «الفكرة الوطنية» عليه: فلقد استقر في وعيه آنذاك بتأثير من معلميه ومدير المدرسة، ومن أبيه كذلك، «أن الاجتهاد في الدراسة والتحصيل واجب وطني، لأن الاستعمار إنما تغلب علينا بسبب الجهل السائد فينا».

ـ ٣ ـ

قررت السلطات الفرنسية إعادة والد صاحبنا إلى وجدة منفياً إليها بعد أن كان منفياً إلى فجيج كما ذكرنا. وهكذا سيلتحق صاحبنا بوالده وعمه من جديد في عاصمة الناحية، وجدة، ولكن لا ليقضي عطلة صيفية في منزل وضيافة خالة أبيه وأبنائها، أو في دكان عمه يتعلم الخياطة ويقوم بالسخرات الضرورية للمنزل والدكان، كما كان الشأن من قبل، بل لقد قدم هذه المرة إلى وجدة للالتحاق بالقسم الإعدادي الذي فتحته هناك إحدى المدارس الحرة الوطنية المعربة، التي كانت تنتمي إلى سلك المدارس الحرة التي أنشأتها الحركة الوطنية كبديل للتعليم الفرنسي الذي كرسته سلطات الحماية وجعلت منه «التعليم الرسمي». لم يكن «التعليم الحر» في ذلك الوقت تعليماً تجارياً كما هو الحال اليوم، بل كان «حراً» بمعنى أنه غير خاضع لتوجيهات السلطات الفرنسية، وأيضاً بمعنى أنه وطني يخدم الثقافة الوطنية والتفكير الحر، فضلاً عن أنه كان مجانياً أو شبه مجاني.

ثلاث ذكريات تلوح مشاهدها أمام ناظري صاحبنا الآن عن هذه المدرسة التي قضى فيها سنة دراسية واحدة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١).

أما الأولى فتتعلق بالمدرسة ونظام الدراسة فيها وما كسبه منها. كان مدير

المدرسة ـ مدرسة التهذيب العربية بوجدة ـ من الرجال العاطفين على الحركة الوطنية، وكان جزائري الأصل، ومن قدماء الجنود في الجيش الفرنسي، فكان يدير مدرسته بأسلوب «عسكري» يحرص أشد الحرص على الانضباط والامتثال والنظام وعلى النظافة وحسن الهندام مع بساطته. كان التلاميذ صنفين: صنف يدرس طول النهار جميع المواد، وآخرون يلتحقون بالمدرسة مساء بعد خروجهم من المدارس الرسمية الفرنسية، ليحضروا دروس اللغة العربية والثقافة الوطنية. وكانت العربية لغة التدريس مع عناية بالفرنسية كلغة ثانية للتلاميذ المعربين.

لقد أبرزنا في الفقرة الماضية الدور التأسيسي الذي كان للسنة التكميلية التي قضاها صاحبنا في فجيج بعد الشهادة الابتدائية، ويستطيع أن يؤكد الآن أن السنة التي قضاها في إعدادية وجدة كانت مكملة للأولى معوضة لجوانب النقص فيها. كان الأساتذة في هذه المدرسة من نوع آخر ومستوى آخر. كان أستاذ الرياضيات والطبيعيات طبيباً متطوعاً تخرج حديثاً، وكان أستاذ اللغة العربية والآداب والتاريخ عصرياً في منهجيته، «حداثياً» في تفكيره. أما أستاذ اللغة الفرنسية فلم يكن يقل مستوى ولا تشدداً عن الأساتذة الفرنسيين في المدارس الرسمية. وهكذا فإذا كان صاحبنا قد اكتسب في السنة التكميلية في فجيج القدرة على التعامل مع النصوص التراثية من جهة، وتعود على العمل العصامي من جهة أخرى، فإنه يتذكر الآن أن أهم ما اكتسبه من إعدادية وجدة وأساتذتها المرموقين هو الانفتاح على الدرس المنظم، على المعارف العصرية والمنهجية الحديثة.

أما الذكرى الثانية التي تحتفظ بها ذاكرته عن مدرسة «التهذيب» بوجدة فهي ذكرى ذات طابع خاص. كان القسم (الصف) الذي التحق به صاحبنا لا يتجاوز عدد تلاميذه الثلاثين، من بينهم ست بنات. وكان عمر الجميع متقارباً في حدود الخامسة عشرة. كانوا إذن في سن المراهقة وعلى مشارف «البلوغ». كانت البنات يلبسن الجلباب المغربي المعروف، ولكن يكشفن عن وجوههن بمجرد وصولهن إلى المدرسة. وكن من العائلات الميسورة نسبياً. كن يجلسن على الكراسي الأمامية على الصف الأيمن. ولم يكن بينهن وبين البنين أي اتصال، فلم يكن يلتفتن إلى جهتهم ولا كُنّ يختلطن بهم خلال فترات الاستراحة، بل كنت ينتحين جانباً. ومع أن الأستاذ المرحوم مصطفى المشرفي ـ وكان هذا اسم المدير ـ كان معروفاً بشدته ومعاملته «العسكرية» للتلاميذ والأساتذة فقد كان صاحبنا يطمئن إليه إذ لم يكن في سلوكه ما يتناقض مع نظام المدرسة، هذا فضلاً عن أن والده كانت تجمعه بهذا المدير

رابطة العمل الوطني، وهي رابطة تعاطف وصداقة. لذلك تلقى صاحبنا بنوع من الاستغراب الأمر الذي بعث به المدير إليه وإلى صديقه الذي يجلس معه على نفس الطاولة يطلب منهما الحضور ـ ذات يوم ـ إلى مكتبه في فترة الاستراحة. لقد كان صاحبنا يعرف أن هذا النوع من «الاستدعاء» لم يكن من أجل شيء آخر غير العقاب. وعبثاً حاول هو وصديقه ـ وكان من مدينة بركان ـ التكهن بما سيقوله لهما المدير. لقد كانا متأكدين من أنهما لم يأتيا ما يستوجب العقاب: فعلاقتهما بالأساتذة طيبة مع حظوة وتقدير خاص، إذ كانا يحتلان المرتبة الأولى في التمارين والاختبارات، كما أن أياً منهما لم يكن قد ارتكب، لا داخل المدرسة ولا خارجها، ما يستوجب استدعاء المدير لهما...

وهكذا وقفا أمام باب مكتب المدير، ينتظران أن ينادي عليهما، يغمرهما شعور غامض: نوع من الاطمئنان مشوب بالحذر. غير أن هذا الاطمئنان قد تبخر بسرعة البرق بمجرد أن فتح المدير باب المكتب، فلقد بدا متجهماً يتطاير الغضب من عينيه ولحيته التي تملأ وجهه كله، وبجانبه، على طاولة خاصة، تلك العصا التي تنزل على راحة أكف التلاميذ كالسوط، كلما ارتكب أحدهم ما يستوجب «التهذيب». كان العقاب، إذا تولاه المدير بنفسه، في مستوى مرتبة «المدير»: فالضربات تتوالى بسرعة على اليدين بالتناوب لمدة لا يستطيع التلميذ المعاقب تقديرها، إذ كان عليه أن يحبس أنفاسه ويعض لسانه حتى لا يصرخ ولا ينبس ببنت شفة.

ومع أن صاحبنا كان «يرى» الضربات تنهال على يديه، والعصا ما تزال ممتدة كالأفعى على الطاولة، والمدير لم يواجههما بعد بما يستوجب العقاب، فإنه كان يحاول حمل نفسه على الاطمئنان إلى أن المدير سيتراجع لأنه سيكتشف عند استنطاقهما أنه لا شيء يستوجب عقابهما. غير أن هذا النوع من الصبر والمصابرة، الذي يحاول به الإنسان عادة مغالبة الخوف والقلق، سرعان ما أصبح غير ذي موضوع، فلقد رفع المدير العصا ودفع بالتلميذين إلى زاوية من المكتب وطلب منهما مد أيديهما.. وبدأت الضربات تنهال عليهما. ولم تتوقف العصا عن الصعود والهبوط إلا بعد أن فقدت الأيدي الإحساس بالألم، وصار التلميذان يمدانها بصورة تلقائية وبوتيرة واحدة تملأ امتداد ذلك الزمن الميت.

استرجع صاحبنا وعيه فجأة وعاد الزمن الحي، زمن التهمة الباطلة التي تعصف بالغفلة والهدوء وتسقط بالنفس في بحر من الدهشة والقلق. لقد قال لهما المدير، وهو يشير لهما بعصاه بالخروج من مكتبه: «إذا عاودتما مرة أخرى «الدسارة»

على البنات (= معاكستهن) بأرجلكما، من تحت الطاولة، فسأكسرها على رأسيكما وأطردكما بصفة نهائية». عادا إلى الفصل بسرعة يسابقان الخطى، وأكفهما تحت إبطيهما من خلاف، إذ لم يكونا يستطيعان تركهما مستلقيتين من شدة الألم. وما إن دخلا الفصل حتى لاحظ صاحبنا أن إحدى البنتين اللتين تجلسان على آخر مقاعد البنات على اليمين تنظر إليهما بابتسامة كلها تَشَفٍ وخبث، وعرف صاحبنا وصديقه أثناء الاستراحة الثانية أن تلك البنت قدمت شكوى إلى المدير تتهمهما بمعاكستها بالأرجل من وراء، خلال حصة من حصص مساء اليوم السابق.

كانت هذه الفتاة في نحو السادسة عشرة، تكبر زميلاتها بنحو سنة، وكانت ضيقة العينين، «بلقاء» البشرة، في غير ما مسحة من جمال، تحرص على الظهور بمظهر الفتاة «المثالية» إلى درجة يصعب معها اتهامها بالكذب أو بالرغبة في إيذاء الناس. لم يكن من عادة صاحبنا الجلوس في المقعد الرابع على اليمين وراء البنات، غير أنه كان قد جلس فيه فعلاً هو وصديقه في تلك الحصة التي ادعت الفتاة أنهما لكزاها خلالها بأرجلهما عمداً ومعاكسة. وبطبيعة الحال فالانضباط «العسكري» لا يسمح لهما بالاحتجاج لديها ولا حتى باستفسارها أو الاعتذار إليها بإفهامها أنه إذا كان قد حصل أن اصطدمت رجل أحدهما برجليها فإن ذلك سيكون قد حدث بصورة آلية وبدون قصد. لم يكن هناك سبيل للاستفسار ولا للاعتذار.. ولا لمعرفة لغز هذا الاتهام، غير أن الحقيقة لا يمكن طمسها، فأمام الناس دائماً ألف سبيل للتعرف عليها.

ـ ٤ ـ

يرتبط مشهد هذه الذكرى في ذهن صاحبنا بذكرى **ثالثة**، من نوع آخر، تقدم وقائعها تفسيراً للاتهام الذي وجهته تلك الفتاة المحترمة لصاحبنا وصديقه، تفسيراً لم يكن ليصدقه صاحبنا لولا أنه أتاه وبلغة تعلو مفرداتها على ميزان الصدق والكذب، اللذين توزن بهما لغة الكلام: لغة بصرية، لاسمعية، ترسلها عينان إلى أخريان إرسالاً متصلاً اتصال الخيط الذي تمسكه حمامتان بمنقاريهما... أو اتصال العمود الضوئي الذي كان يفسر به بعض الفلاسفة عملية الإبصار.

كان صاحبنا يجلس عادة وبتلقائية «بريئة» في المقعد الأمامي على الصف الذي يقع إلى يسار مقاعد البنات. وكان مكتب الأستاذ يقع إلى الأمام على اليمين، فكان

التلميذ الذي يجلس في المقعد الأمامي محاذياً للجدار، على اليسار، يلتقي ببصره، عندما يتجه صوب الأستاذ، بوجوه التلميذات، وأيضاً بأبصارهن، عندما يلتفتن إلى اليسار علانية أو خفية. كانت تربط صاحبنا بتلميذة كانت تجلس على المقعد الأمامي في صف البنات علاقة «التقاء النظر» من النوع الذي سنشرحه، وقد فهم منها، من خلال تجدد هذه العلاقة في اليوم التالي لتعرضه هو وصديقه لعقاب المدير، أن ما حمل تلك الفتاة، التي شكتهما إلى المدير، على الكذب عليهما هو الغيرة، فلقد كان موقعها، في آخر مقعد للبنات، يمكنها من مشاهدة عمود الاتصال الذي يربط بين عيني صاحبنا وعيني الفتاة التي في المقعد الأمامي.

وما يشغل وعي صاحبنا الآن، وقبل الآن منذ أصبح قادراً على استبطان تجاربه والحفر في ذكرياته، هو كنه ذلك النوع من «الاتصال البصري» الذي كان يربطه بتلك الفتاة. إنه يتذكر الآن نظرية ديكارت في تفسير عملية الإبصار. ومع أن العلم قد أثبت خطأها إلا أنه يجدها أقرب إلى تفسير ذلك النوع من الاتصال، الذي يحس الآن أنه يفرض عليه شيئاً من بقايا بطانته الوجدانية. كان ديكارت يعتبر الشعاع الضوئي بمثابة عمود ضاغط ينقل الضوء من الجسم المشع إلى العين، وفاقاً مع نظريته العامة التي توحد بين المادة والامتداد، وبالتالي تنفي الفراغ وتقول بالاتصال. وهكذا يكون اتصال النظر بالنظر، والتقاء العين بالعين يجري، حسب هذه النظرية، عبر عمود ضاغط، تضغط به كل من العينين المتقابلتين على الأخرى: تلامسها وتنقل إليها ما تحمله الأعصاب المتصلة بها، وبلغة الأدباء والشعراء «ما يجيش في قلب صاحبها من أحاسيس ومشاعر»، فيتم الشعور بها في وجدان صاحب العين الأخرى وقد انتقلت إليه بدون توسط اللسان والأذن، بدون وساطة اللغة.

وما يستهوي صاحبنا في هذه النظرية الآن، وهو يحفر في مشهد هذه الذكرى، هو فكرة **«العمود الضاغط»**: ذلك لأنني إذا كنت لا أستطيع التأكد، بالحفر والاستبطان، من أن رؤيتي لهذه الشجرة التي أمامي تتم بفعل «ضغط» يمارسه على عيني شعاع الضوء الذي ينقل صورة تلك الشجرة إلي فإن تجربة التقاء عيني شخص بعيني شخص آخر وتركيز الواحد منهما النظر في عيني الآخر، أو انجذاب عينيه إلى عيني الآخر، تجعل فكرة «الضغط» مبررة تماماً. فالنظر في هذه الحالة هو فعلاً أشبه ما يكون بتبادل الضغط. ولا يزال صاحبنا يتذكر كيف كان هو وأصدقاؤه الصغار يقومون بمباريات «تركيز العين في العين»، والرابح في المباراة هو من يستطيع تركيز عينيه في عيني منافسه أطول مدة دون أن يرف له جفن. والخاسر

هو من يقوى عليه «ضغط» عين منافسه فيتحرك جفنه ويضطرب. وكان الصمود في هذه المباريات، في اعتقاد الأطفال، دليل الرجولة القوية. فالمرأة لا تواجه الرجل عادة في عينيه ـ في الظروف العادية ـ فلا تحدق فيهما بل تنحني ببصرها وتغض من طرفها، علامة على أنوثتها وتعبيراً عن ضعفها ـ على الأقل كما يعتقد «الرجال».

ويستطيع صاحبنا الآن، وهو يستعيد في ذاكرته ذلك «العمود» الذي كان يربط بين عينيه وعيني تلك الفتاة، لفترات من الوقت كانت تستغرق أحياناً المدة التي يقضيها الأستاذ في شرح الدرس، يستطيع أن يؤكد أن ما كان ينساب عبر ذلك «العمود»، وفي الاتجاهين معاً، لم يكن ضغطاً ولا ما يشبه الضغط، بل كان بالعكس من ذلك انجذاباً متبادلاً متصلاً. لم يكن أي منهما يحاول إلحاق الهزيمة بالآخر، بل بالعكس كان كل واحد يطرد الرمش والإعياء من عيني الآخر، وكأن انجذاب العين إلى العين، في مثل هذه «التجربة الاتصالية»، يحررهما تحريراً كاملاً من كل علاقة مع جفنيهما.

وأهم من ذلك، وأبلغ، ما كان ينساب عبر ذلك «العمود»: فلم يكن صورة العينين، لا شكلهما ولا حجمهما ولا أهدابهما ولا حتى «إنسان العين» فيهما... إن ما كان ينساب فيه كان شيئاً آخر تماماً، كان أشبه بتيار دافىء يربط وجداناً بوجدان، ولنقل قلباً بقلب، باعتبار أن الوجدان في هذه «التجربة الاتصالية» يبدو وكأن مركزه القلب أو كأن ثقله يقع كله على القلب فيزداد خفقانه، ولكن لا كما يحدث للخائف أو لمن ينتظر عزيزاً تأخر عن موعد وصوله أو من يسمع اسمه ضمن أسماء الفائزين في امتحان مصيري... لا، إن خفقان القلب في هذه «التجربة الاتصالية» التي تتم باندماج النظر في النظر، بين الفتاة والفتى، خفقان من نوع خاص: خفقان متصل ممتد هادىء دافىء تتقلص فيه حركة القلب إلى درجة الصفر. إنه ذوبان.. لا بل هو «الفناء» الذي تتحدث عنه الصوفية.

لم يسبق لصاحبنا من قبل أن خاض تجربة من تجارب الحب، فلقد كان ما يزال في بداية المراهقة. ومع أن هذه أول «تجربة اتصالية» له من هذا النوع، فإنه إذ يحاول اليوم استرجاعها كاملة مع ما كان يلفها ويسري فيها من شحنات وجدانية، ويؤطرها من معطيات اجتماعية وعائلية، يجد نفسه غير قادر على كبح عناده والاعتراف بالتالي بأنها كانت فعلاً تجربة حب، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بـ «حب معلق»، لا يشكل مشروعاً ولا يتجه نحو غاية أو يتطلع إلى مستقبل. لقد كانت هناك عوامل يستعيد الآن بكل وضوح دورها في صرفه عن إعطاء معنى «الحب» لهذه التجربة يوم كان

بتجاوز تجربة اتصال العينين تحت حماية الاستقطاب الذي يمارسه شرح الأستاذ للدرس. لم يكن هناك أمل في إمكانية الانتقال من لغة العينين إلى كلام اللسان، فكيف بالأحرى إلى ما بعد ذلك. إن نظام المدرسة كان من الصرامة بحيث لم يكن يسمح بالوقوف ولا بالكلام مع أية فتاة. أما خارج المدرسة فالأمر أصعب..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يقرأ بوضوح في عينيها مثل هذا الشعور. كان يقرأ وجدانها مثلما كان يشعر أنها تقرأ وجدانه. كانت أصابع يمنى كل منهما، وبالخصوص السبابة والوسطى، ترسم من حين لآخر، لا علامة النصر، بل علامة الاتحاد والاتصال، ثم تتلاشى هذه العلامة باسترخاء الإصبعين تعبيراً عن اليأس. وإذن فهذا الاتصال الذي كان يعمر الحاضر ويستبد به كان بلا أفق.. كان اليأس يحاصره من كل جانب حتى غدا هذا اليأس نفسه جزءاً من «التجربة»، يأساً معترفاً به، أفقده الاستسلام الطيع له كل مرارة اليأس، فصار محايداً، لا هو حلو ولا هو مر. إن منطق «ليس في الإمكان أبدع مما كان» هو وحده الذي كان سائداً في هذه التجربة. ولذلك كان كل أملها محصوراً في حاضرها.

ليس هذا وحسب، بل لقد كان هناك عامل ثالث قلص من مجال هذا «الإمكان» في وجدان صاحبنا، ولا شك أنه فعل الشيء نفسه في وجدانها هي. كان عم صاحبنا قد تعرف على والد هذه الفتاة، إذ كان من كبار زبنائه يخيط عنده قمصانه ويتبادل معه التحية، وأحياناً الحديث، كلما مر أمام الدكان ذاهباً إلى المسجد أو راجعاً منه. بل لقد كان ذلك طريقه أيضاً إلى داره. كان الاتصال بينهما إذن يتم يومياً، مما فسح المجال لقيام نوع من الصداقة بينهما قوامه الثقة والاحترام المتبادلين.. ومع الأيام تبلور لدى عم صاحبنا مشروع طلب يد ابنة صديقه هذا. ولا يعرف صاحبنا بالضبط كيف علم عمه بكون صديقه هذا له بنت في سن الزواج.. غير أنه لا يستبعد أن يكون قد اكتشف ذلك يوماً عند مرورها أمام دكانه مرتدية جلبابها الأحمر، الذي كان ملفتاً للنظر حقاً.. لقد سمع صاحبنا عمه ذات يوم يتحدث إلى مساعده عن «ذات الجلباب الأحمر».

ومع أن صاحبنا كان يستبعد بينه وبين نفسه أن تقبل المعنية بالأمر الزواج من عمه، أولاً بسبب فارق السن، ثم لكونه كان متزوجاً وطلق، وأيضاً لأن المعنية بالأمر كانت، في تقدير صاحبنا، راغبة في إتمام الدراسة وأنها لن تقبل الزواج قبل البكالوريا ـ تماماً مثلما كان يفكر... لنفسه.. ولها.. ـ مع ذلك كله فإنه كان

يشعر أن مجرد تفكير عمه فيها يكفي ليضطر إلى صرف النظر عن أي مشروع مستقبلي ينقل ذلك «الاتصال البصري» إلى مستوى آخر من «الاتصال». وهل يعقل أن ينافس عمه عليها، حتى ولو على مستوى الحلم؟

انتهت السنة الدراسية، وانقطع الاتصال بين العينين. فلقد انتقل صاحبنا في السنة الموالية إلى الدار البيضاء حيث سيتابع دراسته الإعدادية... وتمر مدة يقدرها صاحبنا الآن ما بين سبعة إلى عشرة أعوام، كاد خلالها أن ينسى تلك التجربة تحت ضغط المسار الجديد الذي دخل فيه. ومع أنه لا يستطيع أن يدعي أن ذكرى تلك التجربة كانت قد غابت تماماً عن وجدانه، ولا أنها كانت تستقر فيه استقراراً، فإنه يستطيع أن يؤكد، بالمقابل، أن مشروع زواج عمه بها قد مات في المهد. أما أخبارها هي فقد انقطعت عنه تماماً، مثلما أنه لا بد أن تكون أخباره قد انقطعت عنها أيضاً. هذا إذا جاز استعمال كلمة «أخبار» في هذا المقام... وعلى كل حال فيبدو أن لأرسطو «الحق» في تأكيده أن ما حدث مرة لا بد أن يحدث مرة أخرى ولو في شكل جديد، طبقاً للتصور الدوري للزمن الذي كان سائداً لدى اليونان. ذلك أن الأقدار أبت إلا أن ترتب لقاء بينهما، ولكن فقط على مستوى «اتصال العينين»، هذه المرة أيضاً. كان صاحبنا يراجع دروسه ذات مساء في حديقة لارميطاج بالدار البيضاء، كما كان قد تعود أن يفعل. وفجأة تبين من بعيد مجموعة من الفتيات بلباسهن الأبيض ـ ممرضات ـ يغادرن الحديقة مصطفات، مثنى مثنى.. وما إن اتجه ببصره نحو صف هاتيك الفتيات حتى شدته إليها شداً قوياً فتاة في وسط الصف كانت هي الأخرى تنظر إليه بنفس الطريقة التي كان ينظر بها.. ترك صاحبنا مقعده في الحديقة ومشى في اتجاه الفتيات، وإذا بدهشة عارمة تعم كيانه عندما اكتشف أن الفتاة التي تنظر إليه هي نفسها... فتاة وجدة. اتصلت أعينهما من جديد، وتبسمت تبسم الذي يفاجأ بما ينتزع منه الفرح، وأحس هو أيضاً بمثل ذلك، ورآها تحرك شفتيها بكلمة لم يسمعها لأنه كان هو أيضاً يحرك شفتيه بكلام لا يسمع... ولم يقله، لأنه لم يكن في الحقيقة يدري ما يقول. ومشى صف الفتيات وهو في وسطه لا تستطيع خرق نظامه، ولا هو يستطيع الاقتراب منه. إن النظام والانضباط قد فرضا عليهما هنا أيضاً ألا يجاوز «الاتصال» مستوى النظر.

انصرف صف الفتيات الممرضات... وعاد صاحبنا أدراجه. وعبثاً حاول بعد ذلك الترصد والانتظار في الحديقة، لفرصة أخرى تجود بها المصادفة. ولكن يبدو أن زمانهما المشترك لا يدور أكثر من دورة واحدة، وأن الرياح قررت، بصفة نهائية، أن تجري في اتجاه آخر...

بعد هذا الاستطراد الذي فرض نفسه على سياق العرض نعود إلى وجدة، إلى ذكرى أخرى من جنس آخر جرت وقائعها، بل «واقعتها» ـ خلال تلك السنة، سنة ١٩٥١. إنها ذكرى وفاة أم صاحبنا. كانت المرحومة قد انتقلت بدورها من فجيج إلى وجدة لتعيش هناك مع أخويها اللذين كانا قد استقرا بها: أخوها من أبيها وأمها الذي تقاعد عن العمل في الجزائر ورحل إلى وجدة ليوظف ما وفره من مال في مقهى يكسب منها قوت عياله، وأخوها من أمها فقط، وكان قد غادر الجزائر قبل سنوات ثم رحل إلى وجدة ليستقر فيها نهائياً يغالب الزمن لكسب الضروري من العيش...

كانت أم صاحبنا قد حصلت في نهاية الأمر على الطلاق من زوجها، بعد أن تداعت صحتها وبرهن زوجها لنفسه، قبل غيره، أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ليدرأ عن زوجته بعض ما كانت تلاقيه و «تكابده» من أمه. وبما أنه لم يكن قد بقي لها في فجيج من تلجأ إليه من الأقربين فقد رحلت هي الأخرى إلى وجدة لتعيش مع أخويها، قريباً من ابنها، الذي كان يدرس في المدينة نفسها يسكن مع أبيه وعمه، ولتعاني في نفس الوقت من مرض تحملته بصمت وصبر، فهي أصلاً لا تشكو ولا تشتكي حتى ولو بلغ بها المصاب ما بلغ. لقد كانت تحرص على التظاهر بالصحة والقدرة كلما زارها ابنها، ولذلك فوجيء بوفاتها. إنه يتذكر، وبانفعال في «الحاضر»، أن وفاة أمه لم ترافقها في وجدانه حين وقوعها أية انفعالات خاصة. لقد كان يعرف أن أمه تعاني من مرض، ولكنه لم يكن يعرف عنه شيئاً، ويستطيع الآن أن يتخيل أنه كان من ذلك النوع الذي يسكن الأجسام بسبب معاناة النفوس.

كان صاحبنا قد اعتاد منذ مدة العيش مع أهله لأبيه، وبالتالي لم يكن يزور أمه في بيت خاله إلا لماماً، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع ولدقائق معدودات. فهي على كل حال «ضيفة» في بيت أخيها وزوجته وأولاده. ومع أن المرأة لا تعتبر ضيفاً عند أي من أقاربها ـ في عرف الفجيجيين ـ بل تعتبر واحدة من الأسرة، فإن صاحبنا كان يشعر أنه من غير المناسب الانضمام إليها والإثقال على خاله. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يشعر في هذه المرحلة من حياته ـ أو أنه يخيل إليه أنه يتذكر الآن أنه لم يكن يشعر ـ بأي انشداد خاص نحوها. إن السنوات التي قضتها عند زوجها في خوف وهلع من أن يزورها ابنها بمحضر حماتها قد خلقت نوعاً من المسافة بين الولد

وأمه: مسافة كان يقبلها ويعترف بها كحق لأمه التي كان يعلم أنها بقيت من أجله بدون زواج إلى أن بلغ السابعة من عمره.. مسافة اعتاد عليها وعوضها بالاقتراب أكثر فأكثر من أبيه وجدته (لأبيه)، وبالاستغراق في دراسته.

فعلاً، كان مستغرقاً في الدرس مرة أخرى ـ كما كان الحال عند وفاة جده لأمه قبل سنتين ـ حينما وقعت «الواقعة» الثانية في غيابه هذه المرة. كانت الساعة حوالى الرابعة بعد الظهر، وكان جالساً في الفصل يستمع إلى الأستاذ (في السنة الأولى من الإعدادي عام ١٩٥١) حينما دق المدير على باب الفصل وفتح الباب ونادى صاحبنا باسمه بهدوء وجدية قائلاً: «فلان.. تعال، أبوك يريدك».. خرج التلميذ من الفصل، وإذا بأبيه وراء الباب يباغته بالقول: «محمد.. تعال... لقد توفيت أمك قبل قليل... اذهب إلى منزل خالك». وصل صاحبنا إلى منزل خاله فوجد الحاضرين منهمكين في تشييع الجنازة... وعاد من المقبرة بعد دفن أمه قبيل غروب الشمس... عاد إلى المدرسة، فقد كانت الدروس تستمر إلى ما بعد المغرب. غير أن المدير والأستاذ نصحاه بالذهاب إلى المنزل للاستراحة هذا المساء.. عاد إلى المنزل في حالة ذهول لا يدري أين كان ولا أين هو، غير أنه لا بد أن يكون قد التحق في صباح اليوم التالي بالمدرسة كالعادة... لقد فاجأته وفاة والدته مفاجأة وجد نفسه معها في موقف شبيه بموقف من يباغته حيوان مفترس مخيف فيواجه الخطر بقوة وسرعة، دون تفكير ولربما دونما إحساس، إذ تتجند كل حواسه وجميع طاقة جسمه لمواجهة الخطر، بالقفز أو بالجري بقوة وسرعة خارقتين. حتى إذا نجا وزال الخطر بدأ حينئذ، في إدراك هول الموقف. وحينئذ فقط، يصفر، ويرتعد، وتخور قواه... ويستسلم لانفعال بعدي يفعل فيه فعله.

* * *

يستطيع صاحبنا أن يجزم، هنا أيضاً، بأن انفعاله حين كتابة هذه السطور ـ هذا الانفعال الذي يبذل جهده كي لا ينعكس على عباراته ـ هو أيضاً انفعال «بعدي». إنه يشعر وهو يكتب بنوع من الرغبة اليائسة في أن تكون وفاة أمه قد تأخرت إلى اليوم، ليقوم بما يفرضه الواجب، لا، بل ليعيش المناسبة بكل مشاعره وجوارحه. بل إنه في الحقيقة يحس برغبة دافقة في أن تكون أمه معه اليوم حية ترزق، ليقوم إزاءها بما يجب. لا، بل يريد أن يعوض لها تلك السنوات السبع التي امتنعت فيها عن الزواج من أجل أن تبقى بجانبه، وأن يجعلها تنسى نهائياً ما قاسته من ألم الفراق، فراق الأم لابنها، كرهاً وقسراً، يوم كانت في عنق زوج واقع كلياً

تحت سلطة أمه، زوج لم ترزق منه بمولود، تنشغل به بعض الانشغال عن مضايقات تلك الحماة القاسية...

رغبة يائسة تعبر عن شعور «بعدي»، شعور لم يعرفه صاحبنا في طفولته ولا في شبابه. إنه متأكد ـ اللهم إلا إذا كان هذا عناداً لاشعورياً منه ـ بأنه لم يشعر قط بأنه عانى أو يعاني وضعية مأساوية. بل بالعكس، لقد كان يشعر دائماً ـ أو هكذا يخيل إليه ـ أنه يعيش وضعية طبيعية تماماً، وضعية الحياة العائلية السوية التي تتشكل فيها «الأنا» بصورة عادية طبيعية. ومن دون شك فهو يستطيع الآن، وهو واثق من صدقه وصدق شعوره، أن يقول إن ما جعله لا يعي ذلك الجانب المأساوي في طفولته، يوم كان واقعاً حياً، هو تلك الرعاية التي كان يحظى بها من جانب أفراد العائلتين معاً، عائلة أبيه وعائلة أمه. وإذا كان جده لأمه قد استأثر به في طفولته الأولى، قبل دخوله مدرسة النهضة المحمدية، فإن العناية الفائقة والاهتمام الزائد اللذين كانت توليهما إياه جدته لأبيه قد جعلته يشعر أنها قد عوضت جده لأمه. لقد كانت تحرص على إحاطته بكل حنانها وعطفها وحبها فلم تكن تترك أحداً من أبنائها وبناتها أو أياً كان يمسه بسوء، لا باللسان ولا بغير اللسان. وهو لا يملك إلا أن يجزم أنها كانت تحبه بالفعل وتؤثره على أبنائها وبناتها، وذلك إلى درجة أن محللاً نفسانياً يتحدث لغة «التعويض» قد يفسر سلوكها ذاك بكونه نوعاً من التعويض إزاء ما قد تكون قد قامت به من دور في «الماضي» في حادثة تطليق أبيه لأمه. على أن مسألة «التعويض» هذه تفقد هنا أهميتها ومبررها. فقد تم تجاوزها عندما صارت له تلك الجدة ـ منذ أن تزوجت أمه وهو في الثامنة من عمره ـ بمثابة الأم الثانية، وبقيت كذلك طيلة حياتها المديدة التي احتفظت فيها بكامل قواها الجسمية والعقلية، إلى أن فارقت الحياة عندما قاربت التسعين، وصاحبنا مشرف على الأربعين: أباً لثلاثة أولاد، بنتان وولد، التحق بهم ولد ثان قبيل وفاة والده، بعد ثلاثين سنة من وفاة أمه، وكأن المولود الجديد جاء ليعوض، مع اخوته، من قضى ومضى.

وإذا كان صاحبنا لا يستطيع أن ينكر أنه قد اختزن في نفسه ـ أو ذاكرته لا فرق ـ نوعاً من المعاناة التي غطت عليها وتجاوزتها وقائع أخرى من حياته، فإنه مع ذلك مطمئن تماماً إلى أنه لم يعان في طفولته أو شبابه مما يشعر به الآن من رغبة يائسة في أنه لو.. ولو.. وأكثر من ذلك فهو لا يملك إلا أن يصرح أنه اليوم يغبط نفسه وزوجته وأبناءه الأربعة حينما يجلسون جميعاً حول مائدة الطعام، عند كل وجبة، في جو عائلي حميم. ولا يستطيع أن ينكر أنه كلما حان موعد رجوع زوجته

من عملها وأبنائه من مدارسهم وجامعاتهم إلا ويأخذ القلق يحوم حوله، فيفسد عليه ما هو منهمك فيه من مطالعة أو كتابة، إلى أن يعود الجميع، الزوجة والأولاد إلى البيت. أما عندما يكون في سفر، وقد يحدث له أن ينسى كل شيء عن أسرته حين حضوره ندوة أو إلقائه محاضرة، فإنه ما أن يركب الطائرة في طريق العودة حتى يجد نفسه مشدوداً إلى لحظة الاستقبال، استقبال زوجته وأولاده له في المطار. حين ذاك فقط، عندما يراهم وراء الشباك في المطار ينتظرون خروجه من قسم الجمارك، يعود إليه ذلك الشعور بالغبطة: يغبط نفسه على أنه صار من جديد يتوسط زوجته وأبناءه.

وما دمنا قد استحضرنا، قبل، المحلل النفساني لتفسير سلوك جدته لأبيه إزاءه، حبها ورعايتها، فقد يكون من المفيد استحضاره هنا أيضاً. وسيكون هذا المحلل غير بعيد عن الصواب، في نظر صاحبنا، إذا هو قال عنه إنه مدفوع برغبة لاشعورية ليحقق لأولاده وأمهم ما كانت تفتقده أمه هو، وكان يفتقده معها: أن يكونا معاً وبحضور والده.

مشاعر وتمنيات.. ولكن لا شيء يضمن أن الرياح كانت ستجري بما تشتهيه ذكرياته في وضعها «الحاضر». ومن يدري فلعل لخير محصور فيما كان: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

استسلام..؟ أم واقعية..؟ أم مجرد تبرير..؟

إنها الحياة.. ولا مُشاحّة في الأسماء.

الفصل السادس

ـ ١ ـ

مع انتهاء السنة الدراسية التي قضاها صاحبنا في السنة الأولى الإعدادية بمدرسة التهذيب بوجدة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) كانت مدرسة النهضة المحمدية بفجيج قد أثمرت فوجها الثاني من حملة الشهادة الابتدائية. وبما أنه كان من المتعذر جداً فتح سلك إعدادي فيها لعدم وجود أساتذة فقد بات المتخرجون فيها الحاملون للشهادة الابتدائية مهددين بالضياع والعودة إلى الأمية، الشيء الذي يهدد مستقبل المدرسة نفسها. كان لا بد إذن من التفكير في حل لإنقاذ مستقبل المتخرجين من هذه المدرسة الوطنية التي قامت على التحدي: تحدي السلطات الاستعمارية ونظام تعليمها، وتحدي فقر البيئة الصحراوية القاسية، فقرها الاقتصادي والثقافي الذي ما كان يمكن الانتصار عليه لولا عزيمة الحاج محمد فرج وجماعة الأربعين الذين تجندوا للمشروع فعبأوا كل الإمكانات المتوفرة لإنجاحه.

كان لا بد إذن من مواصلة التحدي. ولكن كيف؟

إن كاتب هذه السطور لا يعرف بالضبط كيف تبلورت فكرة إرسال التلاميذ المتخرجين في مدرسة النهضة المحمدية بفجيج الحاملين للشهادة الابتدائية، إلى الدار البيضاء لمتابعة دراستهم الثانوية فيها. لقد كانت المدارس الوطنية الحرة، التي كانت منتشرة في المغرب من أقصاه إلى أقصاه مدارس ابتدائية في معظمها، ولم يكن يشتمل منها على المرحلة الإعدادية سوى أربع أو خمس في المغرب كله وبصورة تجريبية متقطعة، باستثناء «مدارس محمد الخامس» بالرباط التي توافرت لها الشروط الضرورية: دعم مباشر من قيادة الحركة الوطنية والملك محمد الخامس الذي تحمل

اسمه، وتوافر الأساتذة المتطوعين القادرين على تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية، وكان معظمهم من الأطباء والصيادلة والمهندسين الذين تخرجوا في المعاهد والجامعات الفرنسية وكانوا على معرفة، بهذه الدرجة أو تلك، باللغة العربية.

أما في الدار البيضاء، التي عرفت بعض مدارسها الابتدائية الوطنية الحرة أقساماً تكميلية تعثرت لضيق بناياتها التي كان معظمها في الأصل دوراً للسكنى إضافة إلى عدم توافرها على أساتذة أكفاء أو قارين، فقد قررت القيادة الوطنية فيها (= حزب الاستقلال) تجميع ما تبقى من تلامذة تلك الأقسام التكميلية في مدرسة «عبد الكريم الحلو» (وهي بناية مدرسية عصرية شيدها أحد الأثرياء الوطنيين من ماله الخاص، وحملت اسمه). وقد أرادت الحركة الوطنية بهذا المشروع حل مشكلة حاملي الشهادة الابتدائية الوطنية الحرة في الدار البيضاء والأقاليم المجاورة، فالتحقت بها مجموعات من حملة الشهادة الابتدائية، من أبي الجعد وبني ملال والجديدة وغيرها. وكانت أبرز مجموعة «إقليمية» فيها هي مجموعة التلامذة الفجيجيين الذين كان صاحبنا واحداً منهم.

من فجيج... إلى الدار البيضاء. مسافة ألف كيلومتر.. من واحة على تخوم الصحراء الكبرى إلى عاصمة المغرب الحديث، عاصمته الصناعية والتجارية... الخ، كيف؟ ولم لا وجدة أو فاس أو الرباط؟

يبدو أن قيادة الحركة الوطنية لم تكن قادرة في تلك الفترة ـ وهي التي كانت تعيش تحت الضغط والقمع ما بين سجون ومناف وأشكال أخرى من التعسف وخنق الأنفاس ـ على تبني مشروع للتعليم الإعدادي والثانوي قادر على استيعاب المتخرجين في مدارسها الابتدائية، دراسة وسكنى ومتطلبات أخرى. ولذلك اكتفت بإنشاء مرحلة إعدادية في الدار البيضاء تستقبل الطلبة من جهات مختلفة، على أن تتولى القيادات الوطنية المحلية، في تلك الجهات، النفقة والإشراف المادي على التلاميذ القادمين منها. وبما أن عدداً متزايداً من العمال والحرفيين الفجيجيين كان قد بدأ يستقر في الدار البيضاء، وكانوا جميعاً من شباب الحركة الوطنية، فقد قاموا بتوجيه من الحاج محمد فرج بتشكيل لجنة تسهر على إقامة التلاميذ، خريجي مدرسة النهضة المحمدية بفجيج، في الدار البيضاء لمتابعة دراستهم الإعدادية والثانوية في مدرسة عبد الكريم الحلو المذكورة.

لا يتذكر صاحبنا بالضبط السبب الذي جعله يتأخر أياماً في وجدة عند افتتاح

الموسم الدراسي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. والغالب أن والده كان ينتظر أن تفتح المدرسة التي تابع فيها صاحبنا دراسته في السنة الإعدادية الأولى أبوابها للتأكد مما إذا كان مديرها سيواصل فتح أقسام المرحلة الإعدادية أم أنه سيتوقف عند السنة الأولى، خصوصاً وسلطات الحماية الفرنسية كانت قد دشنت سياسة قمعية جديدة فاعتقلت القادة الوطنيين وجميع العناصر النشطة، وضيقت الخناق على المشاريع الوطنية وفي مقدمتها التعليم الوطني الحر.

ومهما يكن، فقد التحق صاحبنا بالدار البيضاء ليجد مجموعة من رفاقه القدامى في مدرسة النهضة المحمدية بفجيج من جيله والجيل الذي جاء بعده يدرسون في ثانوية عبد الكريم الحلو، منهم من قُبل في السنة الثانية إعدادي، وكانوا قد قضوا سنة في القسم التكميلي بفجيج، والباقي التحق بالسنة الأولى. لم يجد صاحبنا صعوبة في الالتحاق بالسنة الإعدادية الثانية خصوصاً وكان قد اجتاز امتحانات نهاية السنة الإعدادية الأولى بوجدة بتفوق، علاوة على ما كان قد تلقاه بالقسم التكميلي بفجيج.

كان التدريس باللغة العربية، مع عناية باللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى. وكان معظم الأساتذة من رجال الحركة الوطنية، خصوصاً منهم الذين تولوا تدريس المواد الأدبية (اللغة العربية، الفقه، النحو والبلاغة، الأدب العربي، التاريخ والجغرافيا). وكان على رأس هؤلاء السي بوشتى الجامعي، الذي كان بحق الساهر على المشروع كله: مشروع إنشاء ثانوية عربية وطنية حرة بالدار البيضاء لحل مشكلة المتخرجين في المدارس الابتدائية الوطنية الحرة... أما أساتذة المواد العلمية فقد كانوا من العناصر الوطنية الذين تابعوا دراستهم في المدارس الفرنسية بالمغرب والتحقوا بجامعات فرنسا، وجلهم لم ينهوا مرحلة الإجازة (الليسانس) كاملة لسبب أو لآخر. لقد كانت معرفتهم باللغة العربية محدودة جداً، سواء على مستوى قواعد اللغة أو على مستوى المفاهيم والمصطلحات، مما جعلهم يضطرون إلى استعمال الفرنسية بصورة أو بأخرى.

وفي هذا الصدد يتذكر صاحبنا جيداً كيف أن أستاذ الرياضيات كان يكتب على السبورة النظرية الهندسية أو المعادلة الجبرية بالفرنسية ويطلب من التلاميذ ترجمتها معه إلى العربية. ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى تعرب هذا الأستاذ المقتدر، الذي كان يحظى بإعجاب وتقدير الجميع، فأصبح يملي بالعربية ويشرح بالعربية. وفي نهاية السنة قال للتلاميذ: «العربية لغة جيدة وسهلة لولا المثنى». والواقع أنه كان يعاني

من إعراب المثنى مع إن وأخواتها، خصوصاً في الهندسة حيث يكثر استعمال عبارات التثنية في الحديث عن خصائص الزوايا والمثلثات وغيرها من الأشكال الهندسية. ومهما يكن فإن هذه الصعوبات المهنية لم تكن تعني شيئاً على الإطلاق بالنسبة لهؤلاء الأساتذة الذين كان منهم متطوعون وآخرون يقنعون بمرتب زهيد ومتقطع: فالتلاميذ لم يكونوا يدفعون رسوماً والأساتذة كانوا يعتبرون العمل في هذه المدرسة ومثيلاتها واجباً وطنياً. ولذلك، فكما أن التحاقهم بهذه المدرسة كان تحدياً لمضايقات سلطات الحماية كان كذلك تحدياً للمشاكل المهنية، وفي مقدمتها التدريس باللغة العربية التي كان عليهم أن يتعلموها وهم أساتذة يدرسون. إنه جيل الرواد.. جيل التضحية من أجل الاستقلال الوطني والإعداد له.

ـ ٢ ـ

عندما التحق صاحبنا برفاقه وأصدقائه التلاميذ الفجيجيين في الدار البيضاء وجدهم «يسكنون» في دكاكين الخياطة التي كان يعمل فيها مستضيفوهم من أبناء مدينتهم الذين تكفلوا بالجانب «المادي» من مقامهم هناك.

كانت تلك الدكاكين ـ وتقع في حي «درب الشرفاء الطلبة» ـ تحتوي على «طابقين»: أرضية الدكان، و «سدة»، وهي عبارة عن سقف من الخشب يتوسط ارتفاع سقف الدكان. كانت ماكينات الخياطة تحتل الأرضية، بينما كانت «السدة» مخصصة لخزن البضاعة، وأيضاً للنوم إذا كان صاحب الدكان غير متزوج ولا بيت له. على هذه «السدات»، إذن، كان «يسكن» التلاميذ الفجيجيون في الشهور الأولى من التحاقهم بالدار البيضاء: فيها كانوا ينامون، وعليها أو على أرضيتها يهيئون أكلهم. أما غسل ملابسهم وتنشيفها فقد كان يتم في «العوينة» المجاورة، التي كانت تحتوي، إضافة إلى صنابير الماء، على أحواض لغسل الأواني والثياب، وأيضاً لملء الجرار الجلدية والحاويات الحديدية التي كان أصحابها يطوفون بها في الأزقة يبيعون «الماء الحلو» للمنازل التي لم تكن تتوفر على تجهيزات الشبكة العامة لتوزيع الماء.

كانت وضعية استثنائية فعلاً، تلك التي عاشها صاحبنا والطلبة الفجيجيون إخوانه، في الشهور الأولى من مقامهم في الدار البيضاء: ينامون مصطفين كالسردين «على السدات» أو بين ماكينات الخياطة، ويهيئون أكلهم في قدور جماعية متزودين بالخضر والخبز من «القريعة» القريبة منهم، وهي سوق شعبية للأشياء القديمة

والرخيصة. أما مذاكرة الدروس وإنجاز الواجبات المدرسية فكانوا يقومون بها في حديقة لارميطاج العمومية، في منتصف الطريق بين المدرسة وأماكن سكناهم، وهي مسافة كانوا يقطعونها على الأرجل، أو على الدراجات... ومع أن حالهم صارت أفضل عندما انتقلوا إلى شقة من ثلاث غرف (وكان عددهم نحو العشرين) فإن وضعيتهم الغذائية بقيت سيئة للغاية، وكان صاحبنا من أوائل ضحايا تلك الوضعية حيث أصيب باضطرابات معوية حادة سرعان ما صارت مزمنة.

كان المرحوم بوشتى الجامعي من أكثر القادة الوطنيين في الدار البيضاء اهتماماً بالتعليم الوطني الحر عامة والطلبة «الآفاقيين» خاصة، وفي مقدمتهم الطلبة الفجيجيين، بكيفية أخص. كان يتصل بهم في المدرسة ويسأل عن أحوالهم ويبذل جهده لحل مشاكلهم، سواء خلال السنة الأولى التي قضوها في مدرسة عبد الكريم الحلو أو في المدرسة المحمدية التي انتقل إليها التعليم الثانوي العربي الحر، وعندما تعرض صاحبنا لتلك الأزمة المعوية الحادة ذهب به السي بوشتى إلى أحد الأطباء الوطنيين الذي تولى علاجه ومراقبة حالته الصحية. ويتذكر صاحبنا جيداً ذلك الحديث الذي دار بين الطبيب والسي بوشتى والذي أكد فيه هذا الأخير على ضرورة حل مشكلة هؤلاء الطلبة قبل أن يسقطوا جميعاً فريسة للأمراض.

لم تمر سوى أسابيع حتى هيأ رجال الحركة الوطنية بالدار البيضاء وفي مقدمتهم السي بوشتى ومحمد بلمنصور ـ وكان منفياً من وجدة ـ داراً أكثر اتساعاً وتهوية لسكنى الطلبة الفجيجيين وآخرين من أبي الجعد وبني ملال. ثم رتبت لهم وجبات الأكل في مطعم خيري كانت قد أقامته محسنة لتقديم وجبات إضافية للتلاميذ الفقراء بأحد أحياء الدار البيضاء. لقد تحسنت وضعية الطلبة الفجيجيين إذن. غير أن اعتماد المطعم المذكور اعتماداً كلياً في وجباته الغذائية على القطاني (= اليابس من الفول والعدس والجلبانة) تسبب في أمراض معوية مزمنة للكثيرين منهم.

ومع ذلك، فلم تكن الوضعية المادية لهؤلاء الطلبة مما يشغل بالهم. لقد كانوا يعرفون الظروف الصعبة التي كانت تجتازها الحركة الوطنية على عهد الجنرال جوان والجنرال كيوم اللذين كانا من أكثر المقيمين العامين الفرنسيين في المغرب إمعاناً في قمع الحركة الوطنية وتضييق الخناق عليها. وهكذا لم يقترب صيف عام ١٩٥٣ حتى طالت حملة الاعتقال والنفي السي بوشتى وأساتذة آخرين فضلاً عن القادة الوطنيين على صعيد المغرب كله. وكان من نتيجة ذلك أن توقفت الدراسة الثانوية بالمدرسة المحمدية في وقت كان طلبتها يتهيأون لامتحان الدورة الأخيرة. وتفرق الطلبة

الفجيجيون شذر مذر. بعضهم سيسافر إلى المشرق العربي، وبكيفية خاصة إلى سورية لمتابعة دراستهم الثانوية، وبعضهم سيبقى في المغرب. وكان صاحبنا من هؤلاء. لقد كان والده منفياً إلى فجيج، وكانت وضعية أسرته المادية لا تتحمل النفقة عليه، لا في المغرب ولا خارجه.

ـ ٣ ـ

كانت أزمة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ عامة شاملة. لقد سجلت هاتان السنتان منعطفاً تاريخياً ومرحلة انتقالية ـ من عهد «الحجر والحماية» إلى «عهد الاستقلال والحرية» ـ بالنسبة للشعب المغربي كله. ولما كان الكفاح الوطني والنقلة النوعية التي حققها خلال هذه المرحلة ينتمي إلى ذاكرة «أخرى»، ذاكرة التجربة السياسية التي خاضها صاحبنا والتي ستكون موضوع جزء خاص من هذه الحفريات، فإن «الحفر» سيتركز هنا على الجوانب التي ترتبط مباشرة بالمسار الشخصي لكاتب هذه السطور. والحق أن المرحلة التي نتحدث عنها كانت أيضاً بالنسبة لمسار صاحبنا «منعطفاً تاريخياً» و «مرحلة انتقالية».

وإذا كانت هذه المرحلة التي تزامنت مع بلوغ صاحبنا الثامنة عشرة من عمره تسجل عادة، في العمر الطبيعي والزمن البيولوجي لبني البشر، الانتقال من مرحلة الطفولة والمراهقة إلى مرحلة الشباب والرجولة، وفي العمر الاجتماعي (والاقتصادي والفكري) الانتقال من «حجر» الارتباط بالأسرة إلى «حرية» الاستقلال عنها، فإن الأزمة السياسية العامة التي تميزت بها هذه المرحلة قد طبعت الجوانب المذكورة بطابعها، فتركت بصماتها في المسارات الشخصية لكثير من الناس في المغرب. وبالنسبة لصاحبنا كان وقع هذه الأزمة عليه مباشراً وعلى مستويات عديدة، احتفظت له ذاكرته عنها بالوقائع التالية:

قلنا لقد تميزت هذه المرحلة بالقمع المنهجي الشامل الذي مارسته السلطات الفرنسية على الحركة الوطنية المغربية والذي توجته بخلع ونفي محمد الخامس. كان نصيب صاحبنا من هذا القمع، نصيبه الأول زمنياً، أن أبعدت السلطات الفرنسية من جديد والده من وجدة، حيث كان يحاول استئناف نشاطه التجاري، إلى فجيج حيث فرض عليه نظام الإقامة الإجبارية. أما عمه الذي كان خياطاً في وجدة والذي انتقل إلى الدار البيضاء ليمارس نفس المهنة فلم يكن قد استقرت به الحال عندما

من خيار سوى الانضمام إلى عمه الخياط والعمل معه مساعداً، خصوصاً عندما مكنهما عمه الأصغر ـ الذي كان يشتغل عاملاً مع إحدى الشركات الفرنسية ـ من مبلغ من المال للانطلاق به كرأس مال أولي. لم يكن صاحبنا، هذه المرة، يركب الأزرار ويكوي القمصان كما كان يفعل في دكان عمه بوجدة، بل لقد صار الآن مكلفاً بتسيير الدكان من الناحية المالية والتجارية بينما تولى عمه الناحية المهنية. كان صاحبنا يشتري القماش من متاجر الجملة بدرب عمر بالدار البيضاء، ثم يعود به سراويل أو بذلات يبيعها للتجار بالجملة في اللباس... وسيلته في التنقل: دراجة عادية يحملها من وراء بما استطاعت حمله من المخيطات.

كانت أياماً صعبة تلك التي قضاها صاحبنا خياطاً، ليس لأن المهنة كانت متعبة أو لأنه كان ينفر من العمل اليدوي، كلا. إن المشكلة التي واجهت صاحبنا والتي عانى منها كما يعاني الإنسان من أزمة حادة، نفسية وفكرية، هي مشكلة مستقبله: هل يترك الدراسة نهائياً ويتفرغ لميدان التجارة والمال، أم أنه يترك هذا الميدان ليتفرغ للدراسة؟ سؤال لم يكن الفصل فيه يتوقف على مجرد ميوله واختياره. المشكلة الحقيقية، التي كانت بؤرة الأزمة عنده يومئذ، هي ما بعد الاختيار. لقد كان يشك في نجاح مشروع الخياطة الذي انخرط فيه مع عمه، وفي نفس الوقت كان يحس بأن مسؤولية فشل المشروع ستكون أشد عليه ـ معنوياً وأخلاقياً ـ إذا هو تخلى وترك عمه وجده. وكان يشك أكثر في إمكانية متابعة دراسته: أين وكيف؟

وبينما كان صاحبنا يعاني من بحران من القلق النفسي والفكري جعله يقضي كل يوم ساعات في إحدى الحدائق العمومية ـ التي كان يتردد عليها من قبل للمراجعة والدرس ـ يسرح بخياله في خضم من الأفكار الفارغة الجامدة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويقضي ساعات طوالاً من الليل في أرق موجع وخانق، إذا به تقع عيناه ذات يوم في واجهة إحدى المكتبات التي كان يتردد عليها من حين لآخر، على كتاب بعنوان: **دع القلق وابدأ الحياة** (لمؤلف أمريكي اسمه: ديل كارنيجي ـ ترجمة مصرية). اشترى الكتاب وأخذ يقرأه ويعيد قراءته في الحديقة العمومية كل صباح لمدة أسبوعين أو أكثر حتى تشبع بالطريقة التي يقترحها المؤلف لحل المشاكل، فعزم على تطبيقها والالتزام الكامل والنهائي بما يقرره على ضوئها. إن صاحبنا يدين لهذا الكتاب، ليس فقط في التخلص من تلك الأزمة بل لربما أيضاً في معالجة «قلق الاختيار» كلما اعترض حياته ما يستوجب اتخاذ قرار حاسم.

كان القرار الحاسم الذي اتخذه صاحبنا هو ترك الخياطة ومواصلة الدراسة. وهكذا فما إن بدأت المدارس تفتح أبوابها في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٣ حتى قصد صاحبنا مدير «الثانوية الإسلامية» وهي الثانوية الرسمية التابعة للتعليم الفرنسي بالمغرب والخاصة بالمغاربة المسلمين وحدهم ـ بالدار البيضاء ـ بينما كانت «ثانوية اليوطي» مخصصة أساساً لأبناء الجالية الفرنسية. استقبل هذا المدير الفرنسي صاحبنا ذات صباح بوجه بشوش وأجرى معه محادثة بالفرنسية كان ينوي اختبار مستواه فيها، وذلك بعد أن اطلع على دفتره المدرسي كأحد المتفوقين في اختبارات السنة الخامسة (الثانية إعدادي). وفي نهاية المقابلة قال المدير لصاحبنا: «أنا أتفهم وضعيتك ولا أرى مانعاً في التحاقك بالسنة الرابعة عندنا (الثالثة إعدادي) ولكن لا بد من أن أستشير الأساتذة. عد عندي بعد أيام». وبعد أسبوع عاد صاحبنا يطلب مقابلة المدير فاستقبله لبرهة من الزمن قائلاً: «لم أتمكن بعد من أخذ رأي الأساتذة. عد بعد أيام». وبعد أيام عاد صاحبنا ليتلقى نفس الجواب من المدير.

ثم إن صاحبنا التقى صدفة بتلميذ كان قد التحق بالثانوية المذكورة، في الفترة نفسها، قادماً من مدرسة ثانوية رسمية في مدينة أخرى، وحكى له مماطلة المدير وتسويفه، فما كان من ذلك التلميذ إلا أن ابتسم ابتسامة من يخاطب شخصاً أخطأ الطريق، وقال له: «إنك لم تفهم. إنك تتعب نفسك. اذهب واشتر ديكين روميين من السوق المركزي (سوق خاص بالجالية الأوروبية) واحملهما إلى دار المدير وادفعهما للحارس مع ورقة فيها اسمك، ثم عد إلى المدير بعد ذلك بيوم أو يومين ومعك أدواتك الدراسية». ثم أضاف التلميذ: «ذلك ما فعلته أنا، وفعله من نصحني بذلك وأنا أنصحك بدوري».

«. . . ديكين روميين». . رشوة. . إلى مدير فرنسي!

أحس صاحبنا بأصوات الرفض تنبعث فيه من كل جانب: من قلبه وعقله. . من أبيه، من الحاج محمد فرج، من السي بوشتى. . من كل ما يمثل في كيانه الكرامة والحق والوطنية. وبدأ يحس بصراع في داخله وينوع من القلق يدب في نفسه فقرر الحسم في الأمر حسماً تاماً ونهائياً. . . وهكذا صرف النظر عن الالتحاق بتلك المدرسة وعقد العزم على أن يدرس بنفسه برنامج الشهادة الثانوية (الإعدادية) ويهيىء نفسه بنفسه للتقدم في امتحاناتها كطالب حر.

كان الوضع المادي لعائلته متدهوراً، فوالده منفي في فجيج يعيش مع زوجته

فلم تكن الخياطة تدر عليه إلا ما يكاد يكفي مصروفه اليومي. وأما عمه الأصغر فلم يكن يوفر، رغم اقتصاده وتقتيره على نفسه وأولاده، ما يمكن أن يتسع لما يحتاجه صاحبنا لمتابعة دراسته خارج المغرب. كان الحل الوحيد إذن هو أن يعتمد صاحبنا على نفسه: أن يبحث عن عمل يمكنه من إعالة نفسه ويسمح له بمتابعة دراسته في «البيت» والتقدم للامتحانات كمرشح حر. وكان أول ما فكر فيه هو العمل في التعليم.

ـ ٤ ـ

ذهب صاحبنا لمقابلة مدير المدرسة المحمدية، التي كان يدرس فيها قبل توقف الدراسة في أقسامها الإعدادية بسبب اعتقال أساتذتها والمشرفين الوطنيين عليها. كانت المدرسة المحمدية في الأصل مدرسة ابتدائية وطنية حرة ومزدوجة اللغة (عربية وفرنسية) وكان مديرها من رجالات الحركة الوطنية لم تكن يد الاعتقال قد امتدت إليه في أول الموسم الدراسي (سيعتقل بعد ذلك). حكى صاحبنا للمدير وضعيته.. وطلب منه أن يقبله معلماً مساعداً في الابتدائي.. كان المدير قد تعرف على صاحبنا من قبل، من خلال علاقته بالسي بوشتى الذي كان له، في تلك الفترة، بمثابة الأب الروحي، فرحب به وعينه معلماً مساعداً في الأقسام التحضيرية بمرتب خمسة عشر ألف فرنك في الشهر (يساوي هذا المبلغ حالياً نحو عشرين دولاراً، أما في ذلك الوقت فلا يستطيع صاحبنا تقدير ما كان يساويه دولار تلك الأيام). وبما أن المدير كان يعرف أن صاحبنا يحتاج إلى مسكن فإنه اقترح عليه أن يسكن في المدرسة في غرفة مجاورة لمكتب الممرض ريثما تفرغ إحدى الغرف في الدار التي تملكها المدرسة ويسكن فيها بعض العزب من المعلمين العاملين فيها والذين قدموا من مدن أخرى.

بالفعل لم تمر سوى بضعة أشهر حتى فرغت غرفة صغيرة في تلك الدار، غرفة كانت في الأصل مطبخاً، فكانت من نصيب صاحبنا، اقتسمها معه، لبعض الوقت، صديق له كان يعمل في نفس المدرسة وكان من زملائه «الآفاقيين» بالمدرسة المحمدية أيام الدراسة فيها. كانت الدار تتألف من طابق أرضي وآخر علوي وصحن مفتوح على السماء. كان الطابق العلوي يسكنه ممرض المدرسة مع عائلته، أما الطابق السفلي فكان يشتمل على غرفتين متوسطتي المساحة يسكن فيهما معلمان للغة الفرنسية

في أقسام الشهادة الابتدائية بنفس المدرسة، بينما كانت الغرفة/المطبخ من نصيب صاحبنا. كانت داراً مظلمة لا تنزل الشمس إلى أرضها قط، تقع وسط الأحياء الشعبية التي يتردد فيها صباح مساء صوت الباعة الجوالين لـ «الماء الحلو»، إذ لم تكن شبكة المياه تغطي جميع الدور في تلك الأحياء. أما الأزقة فقد كانت ضيقة ولم تكن تدخلها السيارات الجامعة للنفايات المنزلية مما جعل هذه الأخيرة تنتشر في كل مكان ويزيدها الأطفال الذين يلعبون بها أو عليها ذيوعاً وانتشاراً. أما قنوات الصرف الصحي فكانت ضيقة وفوهاتها عارية تفيض ماء ووحلاً عند نزول المطر. . .

ولكن في مقابل ذلك كانت هذه الأحياء الشعبية، أحياء درب السلطان، شبه مستقلة، إذ لم يكن يقتحمها الجنود الفرنسيون خوفاً من التيه فيها و «الغرق» بين سكانها، بينما كانت ملجأ للفدائيين الذين كان الواحد منهم ينفذ مهمته في الشوارع المجاورة، يقتل خائناً أو جندياً فرنسياً، ثم ينساب وسط هذه الأحياء ويدخل أي منزل اتفق، ويقضي فيه ما شاء من الوقت ـ ساعات أو أياماً كواحد من أهله ـ حتى إذا اطمأن على نفسه خرج لـ «حال سبيله».

غير أن الأمور لم تكن تمر دوماً بمثل هذه البساطة، إذ كثيراً ما كانت سلطات الاحتلال تلجأ إلى عمليات انتقامية عشوائية: تطوق الحي وتعتقل الناس جملة وقد تطلق الرصاص على أي شخص تشتبه في حركته. وإن صاحبنا ليتذكر جيداً كيف أنه احتاج ذات يوم إلى مسمار في غرفته فخرج لشرائه من دكان قريب، غير منتبه إلى أن الوقت كان الساعة السادسة مساء، وهو الوقت الذي كان يبدأ فيه آنذاك نظام منع التجول. وهكذا، فما إن غادر الدكان حتى وجد نفسه مطوقاً بستة جنود فرنسيين يشهرون بندقياتهم عليه من مسافة بضعة أمتار. وقف مشدوهاً لا يتحرك رافعاً يديه بعد أن أحس برصاصة تمر على مقربة من أذنه اليمنى مخلفة صفيراً حاداً اهتزت له أذنه اهتزازاً. . . تقدم إليه أحد الجنود وفتشه ثم أشار عليه ببندقيته بالركوب في سيارة «الكبسة» (لارافل). قضى صاحبنا نحو أسبوع في كوميسارية (مركز الشرطة) في حالة اعتقال احتياطي ولم يشفع له إلا كونه كان يجيب على أسئلة الشرطة بالفرنسية لغتهم. لقد كان استعمال الفرنسية في الكلام علامة على «التحضر». وكان لهذا التصور بعض ما يبرره، فمقاومة الشعب المغربي للاحتلال الفرنسي في ذلك الوقت (١٩٥٤) كانت قد اتسعت وتعممت لتشمل مقاطعة البضائع الفرنسية بما في ذلك اللغة الفرنسية نفسها.

قضى صاحبنا سنتين (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) يعلم في القسم التحضيري وقد ارتفع مرتبه في السنة الثانية إلى سبعة عشر ألف فرنك. وفي نهايتها، أعني في حزيران/ يونيو ١٩٥٥، اجتاز في آن واحد، وبنجاح، امتحان الشهادة الثانوية (الإعدادية) وامتحان الدبلوم الأول في الترجمة، فعينه مدير المدرسة معلماً لأقسام الشهادة الابتدائية ورفع مرتبه إلى خمسة وعشرين ألف فرنك. واغتنم صاحبنا الفرصة فهيأ امتحان الكفاءة في التعليم الابتدائي ونجح فيه (١٩٥٦) في نفس الوقت الذي كان منكباً فيه على التهيؤ لامتحان البكالوريا، معتمداً على نفسه متخذاً من الكتب الفرنسية المقررة في الرياضيات والعلوم بفرنسا مرجعاً له وأستاذاً. كانت تجربة صعبة. وما زال صاحبنا يذكر كيف أنه كان يسهر الليل كله تقريباً، تستهويه التمارين الرياضية والفيزيائية والكيميائية إلى حد الهوس، يحتسي فناجين القهوة الواحد بعد الآخر ويلتهم السجائر التهاماً، فأصبح التدخين له عادة مترسخة منذ ذلك الوقت، لم يتخلص منه ـ بقرار مماثل للقرارات الحاسمة السابقة ـ إلا بعد مضي واحد وعشرين سنة حينما طلب منه طبيب القلب والشرايين ذلك. وتلك مسألة أخرى قد يكون لها مكان في جزء آخر من هذه الحفريات.

لنعد إلى البكالوريا التي اجتاز صاحبنا امتحانها بنجاح في حزيران/ يونيو سنة ١٩٥٧. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعقد فيها دورة للبكالوريا المغربية المعربة بصورة رسمية، وقد ترأس لجنتها الشهيد المهدي بن بركة الذي قرأ أسماء الناجحين بنفسه في بهو بناية المعهد العلمي (كلية العلوم حالياً).

لقد ترشح صاحبنا كطالب حر وعند اجتيازه الامتحان بات متأكداً من نجاحه مطمئناً إلى إجاباته عن الأسئلة، ولذلك لم يفاجأ حينما سمع اسمه ضمن الأسماء الأولى. ولكن ما إن انتهى المهدي بن بركة من قراءة أسماء الناجحين حتى نادى على اسم صاحبنا. اقترب منه بسرعة لم تتح له خلالها فرصة التفكير أو الإحساس بأي شيء قابل للضبط أو الوصف، فلهجة المهدي وطريقته في النداء، فضلاً عن شخصيته واسمه، كل ذلك لم يكن يسمح له بأي شيء آخر غير الاقتراب منه بسرعة والتقاط ما سيقوله. قال المهدي مخاطباً صاحبنا، وكأنه يعرفه منذ زمان: «لا تنس أن تأتي عندي، في المجلس الاستشاري، في العاشرة والنصف من صباح الغد».

لا يتذكر صاحبنا كيف عاش الساعات التي كانت تفصله عن الموعد الذي لم

يكن يخطر له ببال. . كان النجاح في البكالوريا هدفاً عمل له ليل نهار إلى حد الإنهاك، وكان يتوقع أن تكون النتيجة إيجابية خصوصاً بعد أن تأكد من سلامة أجوبته. . أما استقبال المهدي بن بركة، أبرز شخصية وطنية في ذلك الوقت، فهذا ما كان يقع بالنسبة له خارج مجال المفكر فيه.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها السي المهدي، فلقد سبق له أن وقف إلى جانبه على منصة الخطابة بملعب سيدي معروف بشارع الفداء بالدار البيضاء في بداية خريف عام ١٩٥٥. لقد بدأ انفراج سياسي واسع في ذلك الوقت فعاد قادة الحركة الوطنية من المنفى، وبدأت المفاوضات مع الحكومة الفرنسية حول الاستقلال وإعادة محمد الخامس. خطب المهدي في ذلك المهرجان الذي حضره أزيد من مائة ألف. وكان صاحبنا آنذاك عضواً في الشبيبة الاستقلالية، وكان من الفرقة المكلفة بالمنصة، فشاءت المصادفة أن تكون مهمته الوقوف بجانب المهدي، كما يقف الحراس. إن صاحبنا يرى المشهد أمامه بكل وضوح أشعة الشمس التي كانت تطل من على سطوح المنازل المجاورة في ذلك المساء. . قبل الأصيل. ويتذكر صاحبنا بوضوح أكثر «المشهد الصوتي» الذي ما زال يرن في أذنه والذي يعمره صوت المهدي المتميز وهو يصيح بهدوء وثبات وبلهجة استنكارية: «قال لنا الفرنسيون: خذوا الاستقلال أولاً، ثم أعيدوا محمد الخامس إذا شئتم بعد ذلك. إنه يصعب علينا أن نعيده نحن إلى عرشه بعد أن خلعناه، فالرأي العام عندنا لا يقبل هذا التراجع الذي يمس بكرامة فرنسا». ثم عقب المهدي بصوت قوي جهوري قائلاً: «قلنا لهم: نحن أيضاً نحترم الرأي العام المغربي وندافع عن كرامة الشعب المغربي، ولذلك فنحن لا نقبل الاستقلال إلا بعد عودة محمد الخامس إلى عرشه».

عرف صاحبنا، إذن، المهدي خطيباً. ولكنه لم يسبق له أن تعرف عليه منادياً له ومخاطباً إلا في ذلك الصباح الذي حضر فيه المهدي في الموعد تماماً: التاسعة صباحاً، لإعلان نتيجة امتحانات البكالوريا المغربية، بعد أن كانت قد ترددت شكوك حول إمكانية حضوره، لوجوده، حتى ساعة متأخرة من الليل، في أغادير على مسافة نحو سبعمائة كيلومتر جنوب الرباط. ولكن المهدي كعادته لم يتخلف. فلقد عاد من أغادير إلى الرباط على سيارته في تلك الليلة واضعاً في حسبانه حضور حفل إعلان نتائج أول دورة للبكالوريا المغربية.

استقبل الشهيد المهدي صاحبنا في قاعة الاستقبالات بمكتبه بالمجلس الاستشاري الذي كان رئيساً له (كان ذلك المجلس بمثابة برلمان مؤقت شكل مباشرة

بعد الاستقلال في انتظار ان تتهيا الظروف «المناسبة» لإجراء انتخابات عامة). استفسر المهدي صاحبنا، عن مسقط رأسه وعائلته... وقد تبين لصاحبنا أن الشهيد يعرف جيداً الحاج محمد فرج. ثم قال له: «لقد لاحظت أن ترجمتك للنص الفرنسي الذي أعطي لكم في امتحان البكالوريا كانت موفقة جداً. ونحن في جريدة العلم (لسان حزب الاستقلال) محتاجون إلى مترجمين. وقد كلمت المسؤول هناك وأخبرته بأنك ستلتحق بالجريدة غداً. ثم أضاف: «أم تفضل بعد غد؟». فرد صاحبنا قائلاً: «ولكني أعمل معلماً في المدرسة المحمدية بالدار البيضاء». فعقب الشهيد المهدي قائلاً: «سنرى هذه المسألة بعد.. ليست هناك مشكلة. سأكلم المدير إن اقتضى الحال فهو من أصحابنا كما تعلم. اقضِ العطلة الصيفية في العلم، وسأراك هناك من حين لآخر».

قضى صاحبنا صيف ذلك العام ـ عام ١٩٥٧ ـ (وهي السنة الثانية لاستقلال المغرب)، قضاه في جريدة العلم حيث اشتغل أولاً في قسم الترجمة لينتقل بعد ذلك إلى قسم المراسلات الداخلية. لقد صادف أن كان المرحوم باهي محمد حرمة قد التحق بقسم الترجمة إثر مباراة أجريت لتوظيف مترجمين. فالتحقا معاً في الأسبوع نفسه. ومنذ ذلك الوقت توطدت الصداقة بينهما إلى أن توفي المرحوم في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٦، شهيداً للصحافة الوطنية المغربية، لا، بل شهيد النزاهة والاستقامة والبراءة. وعندما التحق صاحبنا بقسم المراسلات الداخلية تذكر أنه كان قد كتب رسالة إلى جريدة العلم، لعلها مقال، وذلك حينما كان يدرس في وجدة سنة ١٩٥١، فأشير إلى تلك المحاولة في بريد القراء مع كلمات تشجيعية. تذكر صاحبنا ذلك عندما أخذ بدوره يحرر بريد القراء في نفس الجريدة...

كان مقر جريدة العلم آنذاك يقع في زنقة ضيقة على شارع تمارة، قريباً من «باب الأحد»، وبجانبه فندق صغير كان يسكنه صاحبنا آنذاك. كان مقر الجريدة عبارة عن بناية متواضعة تتألف من أرضية تتزاحم فيها آلات الطباعة، وطابق على العراء يضم حجرات لمحررين ورئيس التحرير، وأخرى للمدير والمكلفين بالشؤون الإدارية. كان المحررون ـ مترجمون ومصححون ومحررون للمراسلات ـ لا يتجاوز عددهم الثمانية أو العشرة، وكانوا جميعاً من جيل واحد تقريباً: شباب في نحو العشرين. أما الإداريون فلم يكونوا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة. كان الجميع يشتغل كأسرة واحدة يتعاونون ولا يحسبون للوقت حساباً. لم يكن أي منهم صحافياً محترفاً ولا إدارياً متخصصاً، فالاحتراف الصحفي مثله مثل التخصص الإداري كان

أبعد شيء عن الجرائد الوطنية آنذاك. لقد كان العاملون فيها يعتبرون أنفسهم وطنيين مناضلين قبل كل شيء. أما عمال المطبعة فقد كان عددهم لا يتجاوز العشرة، أكثرهم من «منطقة الشمال» التي كانت تحت الحماية الاسبانية، والتي كانت تتميز بجرائدها العربية وبتغلغل التعريب فيها.

وإضافة إلى هؤلاء المحررين الشبان كان يتردد على الجريدة كتاب ومعلقون من الجيل السابق، وكان كثير منهم ممن عملوا في **العلم** بانتظام على عهد الحماية الفرنسية. كان المرحوم علال الفاسي والشهيد المهدي يترددان كثيراً على الجريدة، وكانت وجهتهم دائماً مكتب رئاسة التحرير، ولكن طريقهم إليه كان عبر غرف المحررين. كان الزعيم علال يبتسم للمحررين ويتحدث إليهم باقتضاب في الغالب، وكان يقف مدة أطول، في كثير من الأحيان، مع المرحوم باهي محمد حرمة ليتحدث معه ـ جداً ومزاحاً ـ حول الصحراء وموريتانيا. أما السي المهدي، فكان سريع الحركة، يحيي ويتكلم وهو يمشي كعادته، وكان من جهته يقف أحياناً ليتحدث مع صاحبنا الذي كان يتردد عليه في المجلس الاستشاري من حين لآخر. وكان قد بعثه إلى «طريق الوحدة» حيث عمل في الإذاعة المحلية هناك وكتب تحقيقاً لـ **العلم**. وبما أن علاقة صاحبنا بالشهيد المهدي تنتمي إلى ذاكرة أخرى، ذاكرته السياسية، فلنترك الخوض فيها الآن ولنعد إلى جريدة **العلم**.

لم يكن صاحبنا ينوي المكوث في **العلم** طويلاً، فلقد سبق له أن قرر منذ سنة ١٩٥٣، بصورة حاسمة ونهائية، متابعة الدراسة والإعراض عن كل شاغل آخر. ولذلك طلب من المسؤولين في الجريدة، بمجرد ما انتهت العطلة، السماح له بالذهاب إلى سورية للدراسة في جامعتها واقترح أن يتولى مراسلة **العلم** من هناك. وبدون صعوبة، وفي أسرع وقت حصل صاحبنا على جواز سفر وعلى منحة، وكانت المنح معممة على حاملي شهادة البكالوريا، كما حصل أيضاً على ورقة مراسل لجريدة **العلم**.

عندما عاد صاحبنا إلى المغرب في الصيف الموالي التحق بجريدة **العلم** مرة ثانية. وكان يراسلها فعلاً من دمشق، وكانت مراسلاته في الغالب ذات طابع ثقافي اجتماعي. ولم يكن صاحبنا يتوقع أن يتلقى تعويضاً عن تلك المراسلات، ولذلك فوجىء، عندما زار **العلم** عند عودته من دمشق، بمديرها المرحوم عبد الجليل القباج يستدعيه إلى مكتبه ليسلم إليه ظرفاً وهو يقول: «هذا تعويض رمزي عن مراسلاتك

من دمشق». وكان ذلك اول واخر تعويض تسلمه صاحبنا عما كتب ويكتب في الجرائد والمجلات المغربية.

استأنف صاحبنا عمله في جريدة العلم الذي تميز هذه المرة بإشرافه على صفحة أسبوعية كانت من اقتراحه، وكانت بعنوان «صفحة المعلم». لقد سبق لصاحبنا أن مارس التعليم سنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فكان مؤهلاً لمتابعة قضية التعليم التي كانت تحتل الصدارة، يومئذ، على الساحة الوطنية. لقد قطعت سياسة «التعميم والتعريب»، التي سلكها المرحوم محمد الفاسي وزير التعليم آنذاك، أشواطاً كبيرة ودخلت في ما يشبه «أزمة نمو» لم يكن المغرب مستعداً لمواجهتها، فتقرر التوقف عن مواصلة التعريب الشامل إلى أن يتم إعداد الأطر اللازمة لذلك. وكان هذا القرار موضوع نقاش وطني عام انعكس على «صفحة المعلم» التي كان صاحبنا يتولى كتابة افتتاحياتها وإنجاز حوارات مع المسؤولين عن التعليم، فضلاً عن مراجعة ما يصلها من مقالات من القراء.

هناك واقعة احتفظت بها ذاكرة صاحبنا، ولا يدري الآن هل يرجع بها إلى صيف ١٩٥٧ أو إلى صيف السنة الموالية. لقد اجتمع المحررون، كالعادة، ذات صباح مع القائم برئاسة التحرير آنذاك الأستاذ محمد التازي الذي كان يكتب مذكرات اشتهرت في ذلك الوقت، فضلاً عن قيامه بمهام رئاسة التحرير. وكان مما عرضه عليهم للمناقشة في ذلك الصباح مراسلة لفتاة بعنوان «مذكرات». ولم تذكر تلك الفتاة اسمها ولا عنوانها وإنما اكتفت باسم مستعار هو «رفيقة الطبيعة». ومع أن مقالتها كانت «متحررة جداً» بالنسبة لما كان يكتب في ذلك الوقت، فقد قررت هيئة التحرير باقتراح الأخ التازي فسح المجال أمام هذه الفتاة التي كانت الوحيدة تقريباً التي كتبت للجريدة كتابة في مستوى ما ينشر. وكانت تلك أول مرة ظهرت فيها «رفيقة الطبيعة» ككاتبة ـ فيما أعلم.

ـ ٦ ـ

عاملان اثنان قد يكونان دفعا صاحبنا إلى اختيار دمشق على غيرها من الأقطار العربية: الأول هو وجود بعض الطلبة الفجيجيين هناك ممن كانوا يدرسون معه في الدار البيضاء وكانوا قد سافروا لمتابعة دراستهم الثانوية بسورية بعد توقف الأقسام الإعدادية في المدرسة المحمدية في حزيران/ يونيو ١٩٥٣. كان من هؤلاء أصدقاء

له كان يراسلهم ويراسلونه. أما العامل الثاني فهو كون نظام التعليم في سورية أقرب إلى نظام التعليم في المغرب لاتباعهما معاً النموذج الفرنسي. وقد شاءت الأقدار أن يلتقي صاحبنا في ميناء الدار البيضاء وهو يستعد لركوب الباخرة بثلاثة طلاب من مدينة أبي الجعد كانوا يدرسون معه في نفس المدرسة الثانوية بالدار البيضاء وكانوا يسكنون في نفس الدار التي خصصتها لهم الحركة الوطنية كمأوى..

كانت الرحلة من ميناء الدار البيضاء إلى ميناء بيروت طويلة ومتعبة. لقد استمرت أحد عشر يوماً. وكان عليهم أن يغيروا الباخرة في مرسيليا التي قضوا فيها ليلة في فندق قديم متداع يسكنه شبان أفارقة من السنغال، يفترشون الأرض ويأكلون «ما تيسر». لقد كان منظرهم مخيفاً، لا لأنهم كانوا سود البشرة فمثل هؤلاء منتشرون في المغرب يعيشون كغيرهم من المواطنين، لا فرق. وفي مدينة فجيج نفسها، مسقط رأس صاحبنا، كانت هناك ـ وما زالت ـ عائلات من الفجيجيين السود تسكن مع باقي السكان وفي أحياء مختلفة منها، عائلات كان لبعضها اعتبار خاص من نوع الاعتبار الذي للعائلات الأرستقراطية نفسها..

وإذن فما بعث الشعور بالخوف في نفس صاحبنا ليس لون أولئك الشبان الذين وجدهم يسكنون ذلك الفندق، بل إن الخوف الذي شعر به لم يكن وليد منظرهم بمقدار ما كان نتيجة «تذكر» حرّكه الاسم الذي كان يحمله أولئك الشبان السود: «السنغاليون». لقد ارتبط هذا الاسم في ذاكرة صاحبنا بـ «الفرقة السنغالية» في قوات الاحتلال الفرنسي التي قمعت بصورة وحشية مظاهرات الطبقة العاملة المغربية بالدار البيضاء احتجاجاً على اغتيال المستعمرين الفرنسيين للزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد في كانون الأول/ ديسمبر من سنة ١٩٥٢. لقد رسخ الجيش الفرنسي في فرق «اللفيف الأجنبي»، وفي مقدمتها الفرقة السنغالية، نوعاً من الطاعة العمياء حولتهم إلى آلات منفذة للأوامر. كان الواحد منهم يؤمر بالوقوف في مكان ما في الشارع فيظل واقفاً لا يتحرك ولا يلتفت وكأنه صنم. وإذا أمر بالهجوم أو بالضرب انطلق لا كبشر بل كآلة في صورة بشر، آلة معبأة إلى حد الانفجار، حتى صار اسم «السنغالي» يطلق على من كان انضباطه وتنفيذه للأوامر فيه كثير من «الزيادة على اللزوم».

ومهما يكن فإن صاحبنا لا يتذكر هل نام تلك الليلة أم بقي بدون نوم. إنه الآن لا يرى نفسه إلا على باخرة تركية يجتر على متنها، مع رفاقه، الساعات والأيام في حو من الرتابة المملة، تحيط بها الزرقة من كل جانب، زرقة البحر وزرقة

الباخرة التي كانت لنقل البضائع، مع جناح ضيق للمسافرين من شاكلتهم، بل أيضاً بسبب غياب الأرض: «الأرض» التي تعني هنا «اليابسة» حسب الاصطلاح الجغرافي، وهي لفظة أفقر كثيراً في وجدان الناس من كلمة «الأرض». إن «اليابسة» يابسة حتى في الوجدان. أما لفظ «الأرض» فهو يرسم داخل كيان الإنسان حضوراً مليئاً بالحياة والثبات والرضا.

إن صاحبنا يستعيد في هذه اللحظة داخل وجدانه ذلك الشعور بافتقاد الأرض، الشعور الممزوج بالقلق الذي يقرب من الهوس. لم يكن هذا القلق ناجماً من الخوف على السفينة أن تغرق، فرغم تمايلها ذات اليمين وذات الشمال مع الأمواج، ورغم الصوت الذي كان ينبعث من جوفها، بين حين وآخر، والذي يشبه صوت شجر العرعار الميت حينما يهوي تحت ضربات الحطاب أو بفعل عاصفة هوجاء، أو صوت البعير الجاثم على الأرض، والذي يستحثه صاحبه على النهوض فيرسل صراخاً، ربما استعداداً للوقف ـ وعملية الوقوف أشق على البعير من أي شيء آخر ـ وربما احتجاجاً على ثقل الحمولة، والجمال يحمل عليها وهي جاثمة على الأرض. . . أقول إنه رغم أن السفينة كانت تتمايل وتئن فإن فكرة الغرق كانت غائبة تماماً أو مغيبة، وبالتالي فالقلق الذي كان يشعر به صاحبنا ورفاقه هو قلق على غياب الأرض، أو قل إنه شوق إليها كشوق الطفل إلى أمه التي تركته وحيداً في الدار لقضاء حاجة، ثم تأخرت «أكثر من اللازم». أجل إن عبارة «أمنا الأرض» لا تتشبّع بكل معناها الوجداني، في نفس الإنسان، إلا عندما يبتعد عنها، وتبتعد عنه، لتطوقه زرقة السماء وزرقة البحر من كل جانب. . ولا يشعر الإنسان بضرورة الأرض له إلا حينما يهتز وجدانه ارتياحاً وفرحاً حينما تتراءى له، ولو من بعيد، قطعة من «الأرض»، جزيرة كانت أو شاطئاً.

كان أول شاطىء توقفت فيه السفينة، في طريقها من مرسيليا إلى بيروت، هو شاطىء الإسكندرية. كان فرح صاحبنا ورفاقه فرحاً غير عادي وهم يستعدُّون للنزول في الإسكندرية حيث سمح لهم بزيارتها لمدة ست ساعات بعد الزوال، ريثما تفرغ السفينة البضاعة الموجهة إلى هذه المدينة. كانت فرحة مزودجة: فرحة «استرجاع» الأرض، و «الرجوع» إليها، وفرحة زيارة الإسكندرية، ليس من حيث إنها مدينة الإسكندرية ذاتها، بل من حيث إنها مصر التي كانت تقترن في ذهن صاحبنا ورفاقه بـ «إذاعة صوت العرب» وخطب جمال عبد الناصر وصوت الجامعة

العربية في الأمم المتحدة لفائدة قضية المغرب وأيام طه حسين الخ... لقد كانت مصر ـ والشرق العربي عموماً ـ قبلة الناس في المغرب. فهي الوطنية، وهي التحرر، وهي التقدم. كانت النموذج والمثال للشعوب التي تناضل من أجل استرجاع سيادتها واستقلالها وبناء غدها... ومن سوء حظ صاحبنا ورفاقه أنهم، بمجرد ما خرجوا من الميناء، أضاعوا الطريق المؤدي إلى الأحياء العصرية من المدينة، ليجدوا أنفسهم في قلب أحياء، كل شيء فيها كان أبعد ما يكون عن الصورة التي كانت في أذهانهم عن مصر: أحياء مكتظة بالناس، وأزقة ضيقة وسخة يتزاحم فيها الأطفال والشباب والرجال والشيوخ والنساء بأجسامهم وأصواتهم المرتفعة وبألبستهم الشعبية القروية. وأكثر من ذلك ـ وهذا ما أثار استغراب صاحبنا ورفاقه ـ أن بعض الرجال كانوا يمشون في الطرقات بالبيجاما والشباشب الخشبية، مشية المطمئن من الناس إلى حاله وهندامه. إن لبس البيجاما والشباشب، في الطريق وأمام الناس، كان في تصور صاحبنا ورفاقه ـ وهو التصور الذي نقلوه معهم من بيئتهم في المغرب ـ من أعظم الأمور خرقاً للعادة وخروجاً عن المألوف...

لم تكن هذه المناظر غريبة عن صاحبنا ورفاقه، فلقد اعتادوا على مشاهدتها في الأفلام المصرية. ولكنهم كانوا يعتقدون أنها كانت تنتمي إلى «أيام زمان» وتُصوِّر «تأخر الماضي» في مقابل «تقدم الحاضر»، الحاضر الذي كانوا يرونه في الأفلام المصرية نفسها مجسماً في السيارات الفخمة والسكنى الرفيعة وحفلات الرقص والزفاف... الخ.

ومع أن الشعور بالخيبة، إلى درجة الندم واليأس، كان يملأ نفس صاحبنا، وهو يتجول مع رفاقه في تلك الأحياء الشعبية، ومع أن الخوف قد تطرق بجد إلى قلوبهم بسبب تحديق الناس فيهم من كل جانب وتخوفهم من أن تكون العبارات التي كان الناس يتبادلونها من حولهم جهاراً لغة رمزية للتداول قصد «الانقضاض» عليهم كما يحدث في بعض الأفلام المصرية نفسها... رغم ذلك كله تأبى عبارة «هذا ما فعل الإنكليز بمصر» التي كان صاحبنا قد تلقاها همساً من والده كما سبق أن ذكرنا، إلا أن تزاحم في وجدانه مشاعر الخيبة والخوف. لقد انصرف معنى تلك العبارة، وهو غارق في تلك الأحياء الضيقة الوسخة المخيفة، لا إلى مناظر «الرقي» و «قبلة الفم»، كما كان الشأن عندما همس بها والده في أذنه أول مرة، بل لقد انصرف معنى تلك العبارة الآن إلى الوجه الآخر من مشهد السينما المصرية الذي يمثل هذه المرة الحقيقة الواقعية المرة التي تنتصب أمام عيني صاحبنا متحدية صورة مصر التي

حملها معه من المغرب.. لم يكن يستطيع ان يفسر هذا «التاخر» المهين بشيء آخر غير «الاستعمار الإنكليزي»، تماماً كما كانت مظاهر الانحطاط في المغرب تفسر بـ «الاستعمار الفرنسي». ومع أنه كان يشك في أن يكون الاستعمار هو وحده المسؤول عن «التخلف» في المغرب ومصر وغيرهما من البلدان التي ابتليت بالاستعمار، فإن الصورة التي كانت في مخيلته، لا بل في وجدانه، عن مصر الثورة، قلب العروبة، كانت تصر إصراراً على تحميل الاستعمار وحده كامل المسؤولية.

ومع ذلك فـ «الواقع لا يرتفع» كما يقال. لقد كان وقع الصدمة قوياً شديداً على نفسه، وذلك إلى درجة أنه كان يحس بما يشبه الندم على مجيئه إلى المشرق للدراسة، وهو إحساس لازمه طوال المدة التي قضتها الباخرة في طريقها من الإسكندرية إلى بيروت. وعبثاً حاول مطاردة هذا الإحساس باستحضار حال الأحياء الشعبية بالدار البيضاء. إن صورة مصر، النموذج والمثال، كانت تجعل المقارنة غير مشروعة ولا مقبولة أمام ناظريه..

وصلت الباخرة إلى بيروت مع غروب الشمس. وقد وجد صاحبنا ورفاقه طلاباً مغاربة ينتظرونهم في الميناء، وكانوا قد أخبروهم بتاريخ وصولهم. ومع نزولهم في ميناء بيروت والمرور عبر شوارعها الواسعة المضيئة في اتجاه «الجبل» حيث كان أولئك الطلاب يقضون جزءاً من عطلة الصيف، أخذت «الصورة» ـ صورة المشرق ـ تتغير وتتحسن في منظار صاحبنا. ها هي بيروت ـ أعني ما شاهدوه منها ليلاً وهم في طريقهم إلى «الجبل» ـ تختلف اختلافاً كلياً عن تلك الأحياء التي كانت تمثل في مخيلته الإسكندرية كلها، ومصر كلها بل والمشرق أيضاً. وشيئاً فشيئاً تغيرت الصورة في ذهنه تماماً: إنه الآن يستحضر الأحياء العصرية في الدار البيضاء.. والطريق من فاس إلى إيفران: عالم آخر. لقد تأكد الآن من صدق ما قاله له أحد أولئك الطلاب الذين استقبلوهم في ميناء بيروت، حينما شكا إليه انطباعه عن الإسكندرية، لقد قال له: «الإسكندرية مدينة جميلة، من أجمل مدن المشرق. ومن سوء حظكم أنكم أخطأتم الطريق إلى أحيائها العصرية». ثم أضاف: «وعلى العموم فالمشرق مثل المغرب، هناك أحياء شعبية وأخرى عصرية في جميع مدنهما الكبيرة».

كان الطلاب المغاربة الذين يقضون إجازتهم في «الجبل» يسكنون في الطابق العلوي من منزل كان أصحابه يقيمون في طابقه السفلي. كان على ربوة يطل على سلسلة من الأضواء الليلية التي تلامس الأفق في كل جانب. وإذا كان صاحبنا لا

يتذكر أية مشاهد واضحة عن القرية وما حولها ـ لعلها بحمدون ـ فإنه لا يزال يحتفظ في ذاكرته عن هذه الليلة التي قضاها هناك بأمرين اثنين كانا يبدوان له آنذاك على قدر غير قليل من الغرابة. والذاكرة تهمل المألوف المعتاد من الأمور وتحتفظ بالجديد والغريب والعجيب. لقد اندهش صاحبنا أمام حبات العنب الذي قدمه لهم مضيفوهم بعد العشاء: كانت كبيرة في حجم المشمش. ومع أنه كان في بستانهم بفجيج أنواع من العنب المعروفة بحلاوتها، إضافة إلى أنه كان قد تعرف في وجدة على أنواع أخرى، فلقد كانت كلها من الحجم العادي، أما هذا الذي رآه في «بحمدون» تلك الليلة فلم يكن قد شاهد قبل ذلك ما في مثل حجمه. والمهم في الأمر هو أن اكتشافه في لبنان لهذا النوع «الكبير» من العنب قد ساهم بشكل أساسي في إعادة صورة المشرق في ذهنه إلى وضعها «الطبيعي» الذي كان لها قبل تجربة الأحياء الشعبية في الإسكندرية.

وقد ساهم في تعزيز هذا الوضع «الطبيعي»، الوضع الذي كان يحتله المشرق في نفوس المغاربة، بوصفه النموذج والمثال، عنصر آخر بقي عالقاً في ذاكرته لا يفارقها. والحق أن دهشته كانت أشد، من تلك التي أثارها ذلك العنب في نفسه، كما أن تعجبه كان أقوى وأفعل في نفسه، حينما علم أن الشاب اللبناني الذي كان جالساً معهم تلك الليلة ويسكن بجوارهم ويشتغل راعياً.. كان يحمل الشهادة الثانوية. لقد كان حملة الشهادة الثانوية في المغرب آنذاك ـ وكان قد مر على استقلاله سنة ونصف ـ يعملون موظفين كباراً في الإدارة والشرطة والتعليم، وقد يعينون في وظيفة مدير ديوان وزير أو كاتب عام لوزارة..

حامل الشهادة الثانوية يرعى غنماً؟ إذن لبنان متقدم جداً، ولا بد أن يكون الموظفون فيه من حملة الدكتوراه... ولماذا لا يأتي هذا الشاب وأمثاله للعمل في المغرب والحلول محل الفرنسيين ومساعدة أهله في تحقيق ما يصبون إليه من نهضة وتقدم؟ ذلك هو نوع التساؤلات التي شغلت فكره وهو مستلق على الفراش يطلب النوم ويستعجل الليل ليسافر في الصباح إلى دمشق قبلته وغايته. وإذا كان لا يتذكر بالضبط نوع الأجوبة التي خطرت في ذهنه آنذاك فإنه يستطيع أن يؤكد أنه منذ ذلك الوقت بدأ يتكون لديه شعور، أخذ يتعمق بعد ذلك شيئاً فشيئاً، بضرورة تجنب التسرع في الأحكام، وبضرورة أخذ الاحتياط الكامل من تأثير المقارنات والمماثلات، والحذر كل الحذر من «الشجرة التي تخفي الغابة». إنه يتذكر جيداً كيف أنه انتابه تلك الليلة نوع من الندم ولوم الذات لكونه تسرع وحكم على الإسكندرية

الدار البيضاء. ويتذكر كذلك أنه بدأ منذ تلك الليلة يراجع صورة المشرق في ذهنه محاولاً التخفيف من البطانة الوجدانية التي كانت تلفها والتي كانت تجعل منها صورة ممجدة إلى أبعد مدى. ولعل هذا النوع من المراجعة هو ما جعل انطباعاته في دمشق تتصف بقدر كبير من الواقعية. ولعل هذا أيضاً هو ما جعل رد فعله يقتصر على مجرد ابتسامة عندما سأله أحد الطلاب العرب في دمشق: «هل عندكم ماء في المغرب؟» لقد فهم في الحين أن الطالب قادم من بلد عربي قليل الماء.. بلد من صحراء العرب.

ـ ٧ ـ

التحق صاحبنا عند وصوله دمشق بالطلبة الفجيجيين الذين كانوا يدرسون هناك، وقد كانوا يسكنون الطابق السفلي من إحدى الدور الشعبية وسط المدينة، يعيشون في ظروف أشبه بتلك التي كانوا يعيشون فيها بالدار البيضاء. لقد التحق هؤلاء الفجيجيون بدمشق مباشرة بعد توقف الدراسة الثانوية بالدار البيضاء ١٩٥٣، كما بينا، فانتسبوا إلى المدارس لمتابعة دراستهم الإعدادية والثانوية ولم يكونوا قد التحقوا بعد بالجامعة، ولذلك لم يستفيدوا من المنحة المغربية الجامعية، وإنما كانوا يعيشون من منحة سورية، وكانت أقل كثيراً من المنحة المغربية. كانت حال صاحبنا إذن أحسن نسبياً، فالمنحة المغربية، عندما تحول إلى العملة السورية آنذاك، كانت تقارب أجرة موظف متوسط. وهذا ما مكن صاحبنا من اكتراء غرفة مفروشة مستقلة مع إحدى العائلات شأن الطلاب الجامعيين عموماً. وعلى كل فإن ذاكرته لا تحتفظ له بأي شيء يستحق الذكر حول وضعيته السكنية والمعيشية. كان يسكن بحي المزرعة، وكان يتردد على المطاعم التي يرتادها الطلاب الجامعيون، ولم يكن يعاني من ضائقة مالية، ليس لكثرة ما كان لديه من نقود، بل لأنه تعود كجميع زملائه الفجيجيين أن يعيش على الكفاف...

اكتشف صاحبنا في دمشق، منذ الأيام الأولى من مقامه فيها، صورة أخرى للمشرق غير تلك التي هيمنت على مخيلته بعد «صدمة» الأحياء الشعبية بالإسكندرية. لقد وجد دمشق مدينة هادئة ونظيفة ووجد سكانها في غاية النظافة والهدوء واللطف، يعتبرون كل عربي واحداً منهم فيشعر الوافد عليها من العرب،

فعلاً، بأنه بين أهله وذويه: في دمشق لا يشعر العربي بالغربة أبداً ـ أو على الأقل هكذا كان الشأن يومئذ.

لم تسجل ذاكرة صاحبنا عن السنة الوحيدة التي قضاها في سورية (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) أي شيء من الأشياء المزعجة أو الغريبة التي تحتفظ لها الشحنة الوجدانية المرافقة لها بموقع ما في الذاكرة، مما يجعلها تقاوم النسيان والفناء وتجعل في الإمكان «الحفر» فيها، واستنطاقها فيما بعد.

أجل، كانت السنة التي عاشها في دمشق مليئة بالأحداث السياسية والقومية: أحزاب سياسية متصارعة متنافسة، ومناقشات برلمانية صاخبة، وصحافة حرة تزخر بأنواع من المقالات السياسية والفكرية والأدبية... وأيضاً تجنيد للرأي العام في النزاع الذي كان يبدو خطيراً بين سورية وتركيا، واستقبال حاشد للرئيس جمال عبد الناصر، ورحيل قسم كبير من شعب لبنان إلى دمشق لتحية الرئيس، ثم مناقشات ومزايدات ومفاوضات تبعها الإعلان عن الوحدة بين مصر وسورية وقيام الجمهورية العربية المتحدة... كل هذه المظاهر والوقائع عاشها صاحبنا في دمشق متتبعاً ملاحظاً، وأحياناً منخرطاً ـ ولا ننسى أنه جاء ليقوم بمهمة مراسل لـ **العلم** إضافة إلى مهمته كطالب ـ ولكنها جميعاً تنتمي عنده إلى ذاكرة أخرى، ذاكرته السياسية. تماماً مثلما تنتمي المكاسب الفكرية التي ترجع عنده إلى هذه المرحلة إلى ذاكرته الثقافية. والذاكرتان معاً، السياسية والثقافية ستستقلان، كلاً على حدة، بمؤلف خاص. لذلك سيقتصر الحديث هنا على ما ينتمي إلى نوع المعطيات التي كانت موضوعاً لهذه «الحفريات».

من هذه المعطيات، بل لعلها الوحيدة التي تحضره و «تطالب» بحيز في هذه المحكيات، الوقائع التالية:

هناك ظاهرة كانت قد أثارت انتباه صاحبنا واستغرابه في الأيام الأولى من مقامه في دمشق، وهي نوع الحجاب الذي ترتديه النساء هناك. لقد اعتاد صاحبنا على نوعين من الحجاب في المغرب: «الحايك» الأبيض الذي تلفه المرأة حول جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ولا يترك سوى فتحة تمسكها بيدها في مكان عينها اليمنى ومنها ترى طريقها وما تريد رؤيته. وهذا النوع من الحجاب خاص بالمغرب الشرقي والجزائر. والثاني هو الجلباب الذي يغطي جسم المرأة من الكتفين إلى القدمين ويديها إلى الكوعين. أما العنق والرأس فتغطيهما قلنسوة تثنى على الرأس في

مكان اجبهه. واما الوجه فيغطيه لثام رقيق شفاف يربط بالقلنسوة في منطقة الاذنين ويدلى على الوجه تاركاً مكان العينين من أجل الرؤية. وهذا هو الحجاب الذي كان سائداً في المغرب عموماً. أما نوع الحجاب، الذي رآه أول مرة، في دمشق، فقد استرعى انتباهه فيه كونه أسود رقيقاً شبه شفاف تلقيه المرأة على جسمها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها بما في ذلك الوجه. وعندما سأل صاحبنا أحد الأساتذة عن هذا النوع من الحجاب أجابه بأنه قديم يرجع إلى العصر الروماني والإغريقي، أي إلى ما قبل الإسلام بقرون. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن صاحبنا هذا عاد مؤخراً، عند شيوع الحديث عن «الحجاب الإسلامي»، فراجع هذا التفسير في المراجع التاريخية فوجد أن الأمر كذلك بالفعل، مما جعله يتأكد من أن نوع الحجاب الذي ترتديه المرأة يختلف باختلاف البلدان وما هو سائد فيها من أعراف، وبالتالي فليس هناك حجاب هو وحده «الإسلامي»، بل هناك حجاب على الطريقة المغربية، وآخر على الطريقة الجزائرية، وثالث على الطريقة المصرية، ورابع على الطريقة الخليجية والإيرانية. منه ما ينتمي إلى ما قبل الإسلام ومنه ما ظهر بعده، وهكذا... وكان صاحبنا قد وجد نفس الحجاب في القدس التي زارها في تلك السنة وتعرف فيها على عائلة مغربية، من مسقط رأسه فجيج، كانت تسكن حي المغاربة الذي كانت بعض أزقته شبيهة بأزقة فجيج، وكان رب العائلة مسناً ويتكلم الأمازيغية...

والظاهرة الثانية التي أثارت انتباه صاحبنا واستغرابه عبارة التحية التي يتبادلها الناس هناك في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وهي: «مرحبا..». والجواب: «مرحبا..» أو «مرحبتين». لقد اعتاد في المغرب على عبارة «السلام عليكم». أما كلمة «مرحبا» فلا تقال في المغرب للتحية بل للترحيب بالضيف أو ما في معناه. أما أن يقولها الوافد على الجماعة أو الداخل إلى بيت أو الذي يبادر الآخر بالتحية... فذلك ما كان يرى فيه عكس المعنى: وكأن الضيف يرحب بمضيفه. وقد فسر صاحبنا ـ فيما بعد ـ شيوع عبارة «مرحبا» بدل «السلام عليكم» في الشام بكون أهل البلد فيهم مسلمون وفيهم مسيحيون، وبالتالي فالعبارة الأولى أعم وأنسب لكونها محايدة (وهذا مجرد افتراض).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المغاربة عموماً لم يكونوا يتصورون في ذلك الوقت وجود عربي غير مسلم. فالعروبة والإسلام كانا يعنيان في وعيهم الشيء نفسه. فالعامل المغربي أو الجزائري إذا سئل في فرنسا حيث يشتغل: «من أنت؟»، كان يجيب: «أنا عربي»، دون أن يكون عربياً لا باللسان ولا بالنسب. فالعروبة

والإسلام عند سكان المغرب العربي كانا وما زالا علامة على الهوية الوطنية والانتماء الحضاري. وأكثر من ذلك لم يكن صاحبنا آنذاك يتصور وجود تعدد في «الإسلام». فبما أن الإسلام بالمغرب واحد لا تعدد فيه فقد كان يعتقد أن الأمر كذلك في جميع البلدان. أما الفرق الإسلامية من شيعة وسنة، وكذا المذاهب الفقهية من شافعية وحنفية... الخ فقد قرأ عنها في الكتب فقط، وبالتالي فهي تصنيفات كانت تنتمي عنده إلى الماضي. وعندما اكتشف أن هناك في المشرق شيعة وسنة وحنفية وشافعية... الخ. أدرك، وعندئذ فقط، أن أهل المغرب هم أيضاً صنف من الأصناف (= سنة ومالكية) وليسوا الصنف الوحيد الذي يمثل الإسلام.

وسيكتشف صاحبنا ما كان ـ وما يزال ـ لهذه التصنيفات السائدة في المشرق من تأثير على علاقات الناس داخل المجتمع الواحد. لقد اعتاد في المغرب على الانفتاح في العلاقات بين الناس: فلم يكن يحتاط عندما يوجه الكلام لأي شخص ذلك الاحتياط الذي وجد نفسه «مجبراً» على الأخذ به في دمشق عندما يخاطب شخصاً ما ـ على الأقل هذا ما كان يشعر به لأول عهده بها ـ إذ كان عليه أن يتأكد من هويته الدينية أولاً حتى يختار الألفاظ والعبارات المحايدة، فضلاً عن تجنب كل ما من شأنه أن يجعل المخاطب يشعر بأنه يعامل معاملة «الآخر».

ومع ذلك فقد وقع صاحبنا في هذا النوع من «الخطأ» ـ وتلك هي الواقعة الثالثة التي تختم هذه الملاحظات ـ ولا يدري هل كان الدافع إليه غفلة عادية أم تغافل موجّه، من ذلك النوع الذي يكون فيه للاشعور الدور الأساسي. لقد اضطر صاحبنا إلى معالجة عينيه من مرض «الرمد الحبيبي» (التراخوم)، وكان الطبيب، «طبيب العيون»، قد قرر أن يتم العلاج بنترات الفضة وفي عيادته لمدة أسابيع. كانت فتاة في مقتبل العمر هي التي تتولى العلاج. كانت مساعدة للطبيب، مستقلة بنفسها في غرفة خاصة بعيادته. وكما يحدث غالباً فقد نشأت علاقة «اتصال» بينه وبينها شبيهة بتلك التي عرفها في وجدة مع إحدى زميلاته في المدرسة والتي تحدثنا عنها بتفصيل في فصل سابق.

وعندما يستعيد صاحبنا الآن بعض مشاهد هذه «التجربة» يجدها مماثلة للأولى: كانت فتاة دمشق شبيهة بفتاة وجدة، قواماً ولون بشرة وحواجب وعيوناً، وأيضاً استحياء وقلة كلام، لا بل صمتاً. وباستثناء الكلام المهني لم يكن الظرف يسمح بغير خطاب العينين، وكأن نظام المدرسة «العسكري» الصارم الذي فرض الصمت هناك في وجدة على تجربة «الاتصال البصري» قد انتقل هو نفسه إلى دمشق، مع هذا

الفارق. وهو انه بمقدار ما كان صاحبنا يشعر بانه لا شيء يمنعه من «الكلام» في دمشق ـ وقد جرب فعلاً ـ كان يحس بأن الطرف الآخر لا يملك تلك الحرية أو على الأقل لا يريد أن يتصرف بحرية. لم يكن ذلك منها إعراضاً، فلغة العين كانت تشي بشيء آخر تماماً، لا بل تؤكده بحركات الجفن الذي يشله اليأس. ومع أنه كان قد خاض تجربة «الاتصال البصري» اليائس في وجدة فإنه من جانبه لم يكن يشعر باليأس ولم يكن هناك ما يفرضه عليه. وعبثاً حاول أن يكتشف أسباب «اليأس» عندها: فأصابعها لا تحمل خاتم خطبة ولا خاتم زواج، وهي تعرفه طالباً مغربياً وهو يعرف كم كان الطلاب المغاربة يحظون بالتقدير والمحبة في دمشق. وأكثر من ذلك كانت كل حركاتها تشي بعواطفها...

استمر العلاج ما يقرب من شهرين.. وهي مدة طويلة ومملة بالنسبة لمن يتلقى «فقط» نترات الفضة في عينيه. أما من كانت له «مآرب أخرى» فالوضع يختلف.. لقد كان صاحبنا يخشى أن ينتهي العلاج بانتهاء المدة التي قررها الطبيب كمرحلة أولى وأن لا تكون هناك ضرورة لإضافة أسابيع أخرى. وقد حدث ما كان «يخشاه» صاحبنا، فقد زال الداء خلال المرحلة الأولى ولم تعد الحاجة إلى الدواء قائمة بعد ذلك. كان الطبيب كله أدب وذوق، وقد أصر على مرافقة صاحبنا إلى باب عيادته لتوديعه. ومع أنه كان من الأدب والذوق أن يعرج صاحبنا على الممرضة لشكرها وتوديعها فإنه لم يفعل، وهذا مفهوم، فالعلاقة الخفية لا تترك مجالاً، في العادة، للعلاقات الطبيعية، اللهم إلا في حالة التمثيل، ولم يكن صاحبنا ممثلاً ولا كان يعرف، ولا هو الآن يعرف، كيف يمثل أدواراً غير الدور الذي يتماهى معه.

خرج صاحبنا من العيادة.. ولكنه لم يستطع مغادرة بابها الخارجي. لقد كان يشعر أنه مشدود إليها بألف وثاق. وقف حائراً لا يدري ما يفعل. ولكي يتجنب إثارة الانتباه وقف بجانب علامة وقوف الحافلة على خطوتين أو ثلاث من باب البناية. وتمر الحافلات الواحدة تلو الأخرى... ولا يركب. لقد قرر أن ينتظر حتى تخرج هي ويركب الحافلة معها لا ليودعها بل ليشكرها وسيكون ذلك ـ فيما كان يخيل له ـ مناسبة ليتفق معها على طريقة لـ «تنظيم» اللقاءات بينهما. ومرت ساعات لا يستطيع الآن تقدير كم كانت طويلة مديدة، لقد كانت من تلك الفترات التي تتوقف فيها عقارب الساعة عن الحركة لتترك المجال حراً لـ «عقارب» أخرى، عقارب القلق والانتظار والتوجس... وفي النهاية ركب صاحبنا الحافلة بعد أن ركبت، وبعد أن ركب شخصان بعدها أفسح لهما المجال أمامه حتى لا يبدو وكأنه

يقتفي أثرها... وبينما كان يفاوض نفسه، وهو واقف داخل الحافلة، هل يكلمها هناك أمام الركاب أم يؤجل الاقتراب منها إلى حين نزولها، إذا بها تفاجئه بالاقتراب منه، عيناها في عينيه تعبران بكل يأس الدنيا عن مضمون هذه الكلمات التي همست بها إليه بصوت منخفض أجش، ولكنه مفهوم: «أنا أعرف أن قصدك شريف. ولكن... م.. م.. ما فيش فايدة». ثم أضافت وعيناها شبه نائمتين: «محمد.. أنا من عائلة مسيحية محافظة».

لم يجب صاحبنا ببنت شفة.. لقد أحس إحساس يقين ـ لا إحساس شك ـ أنه ذلك المسافر الذي قطع الغابة من بدايتها إلى نهايتها ليكتشف في الأخير أنه أخطأ الطريق. وما إن «بلع» هذا الإحساس حتى تحركت هي في اتجاه الباب ونزلت.. أما هو فقد نسي نفسه في الحافلة إلى أن وقفت به في نهاية خطها في ساحة حي «القصاع».. فلم يكن أمامه إلا أن يركب الحافلة من جديد ليعود إلى حي «المزرعة».. ولكن بدون حرث ولا زرع... ومع ذلك فالخيال لا يستسلم للأمر الواقع كما يستسلم الحس والعقل.. لقد بقيت حاضرة في خياله مدة.. يتصورها معه «هاربين» إلى مكان ما في العالم ليست فيه حواجز بين المسيحية والإسلام، مكان حر طليق خال من جميع القيود التي تحمل الفتاة أو الفتى على القول بكل مرارة اليأس: «.. ما فيش فايدة..».

لم يمكث صاحبنا في دمشق سوى سنة دراسية واحدة (تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧ ـ حزيران/ يونيو ١٩٥٨). لقد عاد إلى المغرب في عطلة الصيف ليجد كلية الآداب بالرباط تستعد لفتح أبوابها مع بداية الموسم التالي. لقد كان ينوي، عندما ذهب إلى سورية، التخصص في الرياضيات أو العلوم، ولكنه أصيب بنوع من الصدمة عندما وجد «الصيغة» ـ بمعنى الجشطلت ـ تختلف عما ألفه في كتب العلوم والرياضيات التي درس فيها. لقد تعود على الأرقام العربية في كتب الرياضيات وعلى الحروف اللاتينية في المعادلات الفيزيائية والكيميائية، وإذا به يفاجأ، في دمشق، بأرقام أخرى، وهي المسماة هندية، تملأ كتب الرياضيات وبحروف عربية كرموز فيزيائية وكيميائية، هذا إضافة إلى الاختلاف في المصطلح وإلى كثافة وثقل البرنامج المقرر... كل ذلك جعل صاحبنا لا يتعرف على معلوماته ولا على «موهبته» في العلوم والرياضيات، فقرر تغيير «التخصص» واتجه إلى الحقوق. وبما أنه كان قد ترامى إلى سمعه أن الحقوق تعتمد على «الحفظ»، وبما أنه كان يميل بطبعه إلى «الفهم» أكثر، لا إلى الحفظ، فقد قرر القيام بعملية استطلاع أولية،

التعامل معها فاكتشف أنها «فوق طاقته». وهكذا لم يبق أمامه سوى خيار واحد وهو الانتساب إلى كلية الآداب واجتياز سنة «الثقافة العامة» ليختار بعد ذلك: إما الأدب واللغة، وإما التاريخ والجغرافية، وإما الفلسفة. ومن خلال التعامل مع هذه المواد تبين له أن الفلسفة تستهويه أكثر...

فعلاً، اختار الفلسفة عند التحاقه بكلية الآداب بالرباط في تشرين الأول/ اكتوبر من سنة ١٩٥٨. ولم يكن «الاختيار»، هذه المرة أيضاً، عملية سهلة ـ أقصد اختيار البقاء في المغرب بدل الرجوع إلى سورية ـ بل لقد كان لا بد من معاناة قلق الاختيار مرة أخرى وكان لا بد من اتخاذ قرار «حاسم».

فصل فريد

عندما كان صاحبنا يراجع هذه «الحفريات» قبل الدفع بها إلى المطبعة، استيقظت في ذاكرته تفاصيل أخرى تتعلق بوفاة والدته سجلها في هذا «الفصل» الفريد الذي يستعيد فيه تلك التفاصيل حية كما كانت عند انبثاقها في ذاكرته، وكما استرسلت حين كتابتها.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من وفاة والدته، اتصلت به إحدى قريباتها، وكانت صديقة للعائلة وامرأة موثوقاً بها، وأخبرته أن المرحومة تركت عندها، لدى مغادرتها فجيج للالتحاق بأخويها في وجدة وهي في حالة صحية متدهورة، أغراضها الشخصية وأوصتها أن تقدمها لابنها عندما يحين أجلها. وأفادته بأن هذه الأغراض تتكون من حزام وقصعة وجفنية وخلخال وإزار وآلة نسج يكبس بها الخيط على المنوال حين النسج، وذلك ما تملكه المرأة عادة في فجيج ملكية شخصية، لكون هذه الأشياء هي قوام مهرها وتجهيزها، وتحتفظ بها المرأة لتقدمها لابنتها عند زواجها. وبما أن المرحومة لم ترزق بمولود آخر غير صاحبنا، وبما أنها لم تكن متأكدة من العودة لاشتداد المرض عليها وإحساسها بدنو أجلها، فقد احتفظت له بهذه الأغراض، هدية منها تقدم له عند وفاتها.

سألت تلك السيدة صاحبنا إن كان يريد أن ترسل إليه تلك الأغراض إلى وجدة أم أنه يفضل أن تبيعها في فجيج وتبعث إليه بقيمتها. اختار صاحبنا أن تباع. وبعد شهر أو نحوه تلقى من السيدة المذكورة مبلغاً من المال مقداره أحد عشر ألف فرنك تقريباً (مائة وعشر دراهم، نحو اثني عشر دولاراً بالصرف الحالي). تسلمها صاحبنا واشترى بها بضعة كتب. وكان ذلك هو الإرث الوحيد الذي ناله صاحبنا في حياته. نعم كان ذلك هو الإرث المادي الوحيد الذي كان من حظ صاحبنا طول

حياته. ومع أن ذلك المبلغ يبدو زهيداً في ذاته فهو عنده الآن أعظم من كل متاع الدنيا. إنه يقول: «الآن...» لأنه يشعر أن الإخلاص والصدق يفرضان عليه أن يعترف أنه لا يتذكر أنه تأثر لذلك، ولا حتى لوفاتها نفسه، التأثر الذي يناسب الموقف، التأثر الذي يشعر به ويعيشه الآن، لا بل يستمتع به، كما يستمتع المرء بالبكاء عندما تهاجه الدموع ويفلت منه زمام أمره، فتتدافع أنفاسه موجات تتلاحق وتتزاحم، بقوة وعنف، على حنجرته وخياشيمه وجميع مخارج صوته، منبعثة من أعمق أعماقه، من داخل أحشائه، من عقدة سرته، من كل جسمه الذي يفرض ارتجاجه وارتعاده على الإرادة مهما حاولت أن تكون قوية، تماماً كما يحصل لمن ينفجر بالضحك من شدة وقع نكتة أو تشبيه من تشبيهات «تومزيا»...

أجل، لا فرق بين الضحك الذي تنتزعه النكتة القوية وبين البكاء الذي تفجره الحسرة الملتهبة:

النكتة ترسم صورة «سحرية» للعالم، تخترق وتنتهك حرمات المألوف وقانونيته، وتحرر الخيال من قيود العادة والمنطق والمعايير الاجتماعية وغيرها، فتكشف عن العبث الذي يثوي وراء ذلك وعن «النفاق» الذي يواجهه الناس به، وتفضح هروبهم منه سواء إلى أمام أو إلى وراء. بكلمة واحدة: النكتة تقدم الحقيقة عارية فيتلقاها الخيال «الخام» ـ إن صح التعبير ـ ويصدم بها «الحقيقة» المألوفة المصنوعة صدماً قوياً، فيفقد «الأنا» سلطة الرقابة والتحكم والتصريف وينطق الجسد بكل وظائفه الحركية الدينامية والفيزيولوجية، فيحدث ما يحدث من ضحك تتمزق له الأحشاء وترتعد به الأوصال وتختنق له الأنفاس... الخ.

ومثل النكتة القوية في ذلك الحسرة الحارقة للصدر، العاصرة للقلب، على فقدان عزيز حين اختفائه، أو حين استعادة ذكراه ملفوفة في شحناتها الوجدانية التي كبتت وقمعت بفعل ضغوط الحياة، لا بل بسبب الغفلة في الحياة والانسياق البليد الأبله، مع اليومي، من عبثها وتفاهاتها... إن الأمر يتعلق هنا أيضاً بمواجهة حرة للحقيقة العارية، الحقيقة الخام التي لم يداخلها التشويه ولا التمويه اللذان تلحقهما بها المواعظ والدعوات والصبر والمصابرة وغير ذلك من الآليات التي يستعجل بها بنو الإنسان النسيان والعودة إلى قانونية المألوف اليومي، إلى غفلته وتفاهته.

لا، لم تكن زهيدة قيمة تلك الأغراض الشخصية التي أصرت الوالدة على أن تورثها صاحبنا، وهي بصدد السفر إلى حيث كانت تشعر أنها لن تكون لها منه

لأنه كان ما يزال طفلاً في الخامسة عشرة من العمر يفرح كما يفرح الأطفال عموماً بأية دراهم تقدم لهم على حين غفلة. وإذا كان صاحبنا لا يتذكر ماذا فعل بتلك الدراهم، والغالب أنه اشترى بها أو ببعضها كتباً، فإنه يعلم الآن علماً لا فكاك له منه أن فرحته، في هذه اللحظة التي يستعيد فيها هذه الذكرى ويرقنها على الحاسوب في الوقت نفسه، أعظم وقعاً على نفسه وأعمق أثراً في كيانه. إنه يعيشها، لا، بل يندمج فيها اندماجاً أعمق وأقوى ألف ألف مرة مما كانت عليه يوم كانت واقعة من وقائع الحياة الخاضعة لليومي، للوعظ والتجمل واصطناع الصبر الذي يقتل الحياة ويدفع بالمعاناة إلى غياهب النسيان.

لقد استرجع هذه الذكرى وعاشها بكل جوارحه، قبيل كتابة هذه السطور ولحظة كتابتها، بعد ستة وأربعين عاماً تعرضت خلالها لأكثر أنواع النسيان بلادة وتفاهة، حتى غابت تماماً من ساحة الحضور في نفسه وبقيت بعيدة في غياهب النفس حتى لم يعد لها أثر. ويجب عليه أن يعترف الآن أنه انساق، حينما بدأ «يحفر» في ذاكرته، مع موجات «اليومي» ومتاهاته، مع المشاهد الحسية والوقائع اليومية الرتيبة.

ومع أنه كان يبذل كل جهده لاستعادة ذكرياته مرفقة بما كان يلفها من بطانة وجدانية، ومع أنه استطاع أن يحيا في ذاكرته، أو على الأصح أن يبث فيها، الانفعالات التي رافقت «بعدياً» واقعة وفاة جده لأمه وجو المأساة الذي تمت فيه، ومع أنه حاول كذلك أن يبرز الجانب المأساوي في تجربة الزواج التي عانت منها أمه معاناة مريرة... مع ذلك كله فقد بقيت هذه الذكرى، التي هو بصدد استعادتها وتحليلها الآن، غائبة هاربة في سراديب الذاكرة، مختفية ومتمنعة. وأكثر من ذلك أصرت على الهروب والامتناع أثناء قراءته لهذا «المكتوب» قراءة مراقبة ومراجعة، وأيضاً قراءة استكشاف واستدراك، عندما كانت تنشر حلقات متسلسلة على صفحات الجرائد.

وفي آخر لحظة، وكما يحدث للمذيع، المنهمك في قراءة نشرة الأخبار، عندما يدخل عليه زميل له في قسم التحرير يحمل خبراً مستعجلاً يطلب منه قراءته في الحين... استفاقت تلك الذكرى فجأة في نفس صاحبنا مع استيقاظه من نومه هذا الصباح قبيل الوقت المعتاد، وفي نيته أن يقوم بعمليات الترتيب الأخيرة لهذا «النص» على جهاز الحاسوب (الكمبيوتر)، قبل دفع النسخة الأخيرة منه إلى آلة

السحب بالمطبعة التي تولت طبع هذا الذي بين يديك أيها القارىء.

فجأة، استفاقت تلك الذكرى إذن بعناصرها الثلاثة: الأغراض، السيدة المؤتمنة عليها، المبلغ الذي توصل به. وبما أنه لم يعد من الممكن قط التفكير في استعادة تلك الأغراض، تماماً مثلما لم يعد من الممكن أبداً التفكير في النهوض والذهاب لزيارة الوالدة، لشكرها على هذه الهدية الغالية، فقد انصرف تفكيره ـ لا، ليس التفكير. . فقد انسحب لحظتها ليترك الكيان كله يتصرف بحرية الغريزة التي وحدها قادرة على تحرير ما في الكيان الجسمي والنفسي من طاقات مكبوتة مقموعة. . . انصرف كله. . . وترك الرقن، فهذا الجهاز المتطور مادياً ما زال متخلفاً عاطفياً، ما زال غير قادر على التقاط «رقن» القلب من خلال رقن الأصابع.

انصرف بكل كيانه، إذن، للذكرى وحدها، يعيشها كما شاءت هي، مستمتعاً بها ذلك الاستمتاع الذي وصفنا، متوقفاً عن الكتابة، تاركاً «الحاسوب» يحسب الفراغ، يعد لحظات زمن غير قابلة للعد. . . حتى إذا «رجع» إلى نفسه (آه، تباً للغة. وأين كان حينذاك؟ لنقل إذن: حتى إذا عاد إلى حاملها، الجسد، الذي تتوزع فيه وتضيع) أخذ يقرأ، قراءة أخرى، تاريخ حياته في علاقته بوالدته، وتاريخ والدته في علاقتها به.

إنه يتصور نفسه جنيناً في بطنها، ويتصورها زاهية جذلى لكونها أصبحت حبلى. وبما أنها كتومة تخفي فرحتها، كما تمسك قرحتها، فقد احتفظت لنفسها بزهوها وجذلها وتركتهما يعتملان في داخلها، متجهة ببصرها إلى السماء في حشمة وتضرع تطلب من الله، كما تفعل النساء غالباً، أن يجعل ما في بطنها مولوداً ذكراً، ليس فقط لكونها ترغب كما يرغب الناس عادة في المولود الذكر، بل أيضاً لكونها تعرف أن حظوظ إفلات المرأة من الطلاق، على الأقل في البيئة التي نشأت فيها، ترتفع وتقوى، عندما تهدي لزوجها مولوداً ذكراً يخلد اسمه ويكون له عوناً ووارثاً.

غير أن الأقدار كانت لرغبتها الصامتة هذه بالمرصاد. إن أم الزوج في «البلد» ـ وربما في كل بلد ـ لم تكن تتنازل عن مكانتها كـ «أم» لزوجة ابنها، بل هي تنصب نفسها كـ «حماتها»: كمنافسة لها و «حامية» لابنها منها، تنتظر الفرصة لفرض الطلاق على الزوجين لاستعادة ابنها.

ذلك ما حدث. لقد عادت الوازنة إلى بيت والدها حاملة جنينها في بطنها، في شهره السادس تقريباً. وعندما وضعت، كان المولود ذكراً، مما لا شك أنه أثار

الفرحة في قلبها وقلب عائلتها كلها. إن المولود الذكر يُحتفَى به دوماً. هذا ما جرت به عادة البشر. وبالنسبة للمطلقة قد يكون حافزاً لزوجها السابق على «التراجع»، إذا لم يكن قد تزوج أخرى.

ولا يستطيع صاحبنا أن يؤكد هل كانت «الحماة» قد بادرت وسابقت الزمن فزوجت ابنها قبل أن تضع زوجته السابقة، أم لا. ولكنه يعلم علم اليقين ـ لأن مصدره هنا هو هذه «الحماة» نفسها، أعني جدته لأبيه ـ أن هذه الأخيرة طالبت بالمولود ليكون في حضن أبيه وحضنها هي، فامتنعت أم الولد وأهلها، أبوها وأمها وأخواها، وحينئذ اشترطت عليهم أن يتولوا كفالته حتى يكبر وألا يطالبوا أباه بأي نفقة فقبلوا، وهم يعلمون أن المطروح ليس النفقة، فوالد الطفل وعائلته لم يكونوا فقراء، وإنما يتعلق الأمر بذلك النوع من التحديات البلهاء التي ترفع حين الخصومة لإبراز التفوق واستعراض القوة. قبلت أم الطفل وأهلها ذلك الشرط بصدر رحب، وأضافوا إليه تحدياً يتجاوز تحديات «الحماة» فالتزموا من تلقاء أنفسهم، وأعلنوا ذلك للناس، أن تبقى الأم بجانب وليدها في بيت أهلها عاكفة على رعايته، لا تغادره إلى زواج آخر، إلا بعد أن يبلغ سبع سنين. ولا شك أن جده لأمه، الذي كان «فقيهاً»، قد راعى في تحديد المدة بـ «سبع سنين» أن تكون «الحضانة» وفق ما يقرره الشرع: لقد سمعه ذات مرة يقول لبعض جلسائه: قال الفقهاء: «إذا بلغ الولد سبع سنين خيّر بين أبويه فمن اختار منهما كانت له الحضانة، أما قبل ذلك فالولد في حضن أمه».

مكثت الوالدة، إذن، في بيت أهلها سبع سنوات وأشهر، عازفة عن الزواج ممتنعة، موفية بالنذر، نذرها وأهلها، ومكث الطفل صاحبنا المدة نفسها في حجر والدته، على ظهر أمها، على كتفي أبيها. وما هي إلا شهور حتى تلاشت وذابت تلك الخصومة المصطنعة بين أهله من أبيه وأهله من أمه، وصار هو نفسه صلة الوصل بينهما، يغدو ويروح بين منزليهما، تارة على كتفي جده لأمه وتارة على ظهر عمته، كما سبق أن شرحنا.

وتتزوج أمه بعد أن أوفت بعهدها كاملاً، ذلك الزواج الذي دام أزيد من ست سنوات، قاست خلالها الأمرين (بل «المرار» كما يعبر بالدارجة)، من حماة قاسية ظالمة وزوج ضعيف الإرادة خنوع ذليل أمام تجاوزات أمه. ست سنوات لم يكن يراها فيها ابنها، ولم تكن تراه، إلا خفية ولدقائق معدودة، وعلى مسافات زمنية أخذت تمتد وتطول لتصبح شهوراً أو أكثر. كان بيت زوجها ـ ابن أمه ومستلبها ـ

يقع في ضواحي قصر زناكة في أقصى حي «ادريت» على ضفة وادي «إيبوشليقن» بجوار البساتين وقريباً من «القناطر». وفي زمن طفولة صاحبنا كان يُضرب المثل في البعد بـ «القناطر»، لأنها كانت فعلاً خارج المنطقة السكنية...

لقد كانت أمه إذن بعيدة عنه على صعيد الموقع والمكان، كما على صعيد المسافة والزمن، فكان لا بد أن ينعكس ذلك على المسافة النفسية في كيانه، خصوصاً وقد لقي من العناية والرعاية من أهله لأمه أولاً، ثم من أهله لأبيه ثانياً، ما يجعل هذه المسافات تفقد وقعها على نفسه، أعني على مستوى الشعور فيه.

وينتقل صاحبنا إلى وجدة، ليسكن مع أبيه. ويأتيه خبر طلاق أمه، بعد أن أنهكتها، في نفسها وفي جسدها، استفزازات وإهانات حماة لا ترعوي ولا تعف ولا ترحم. وتنتقل أمه هي الأخرى إلى وجدة لتعيش مع أخويها، تعاني من مرض ألزمها الفراش لتفارق الحياة بعد ذلك بنحو سنة. أما صاحبنا الذي وصفنا، في فصل سابق، كيف تلقى الخبر وكيف تقبله، فقد استرسل في دراسته، في وجدة وفي الدار البيضاء ثم في دمشق والرباط، ليستغرق بعد ذلك في دوامة الحياة ومطالبها، في الصحافة والسياسة والثقافة والمنزل والأولاد، حتى إذا مرت ست وأربعون سنة على وفاتها، وهو يلج الستينات من عمره، منشغلاً بالحفر في «ذاكرته» تذكر... تذكر أنها كانت تفكر فيه منشغلة به كعادتها، بكل صمتها وتحملها وأنفتها، وأنها رتبت أمرها، وهي تغادر «البلد» يائسة من العودة، فأوصت له بكل ما تملك، بأعز ما تملك، بـ «المتاع» الذي تحتفظ به المرأة لنفسها. ولكي تطمئن إلى أن الوصية لا بد أن تصل إلى ابنها سلمتها لسيدة تعرفه ويعرفها، سيدة محترمة وموضع ثقة.

وها هو الآن، أعني صاحبنا، يتذكر الساعة، أعني لحظة كتابة هذه السطور.. لا، بل إنه يرى رأي العين المجردة، هذه السيدة، ويسترجع بوضوح كامل، كيف كان يختزل الطريق إلى منزل زوج أمه، بالمرور عبر منزل تلك السيدة التي ائتمنتها والدته على الأغراض المذكورة.

كان منزل أهله لأبيه، وقد كان يقيم عندهم آنذاك، يقع في حي تمتد منازله على خط مواز للخط الذي يوجد فيه منزل زوج أمه. وقد كان على صاحبنا إذا هو سار مع الطريق العمومية أن ينزل مسافة بعيدة إلى «تاشرافت» التابعة لحي «ادريت» ثم يعود بعد ذلك أدراجه مع الشارع الذاهب إلى «القناطر»... أما المرور عبر منزل السيدة المذكورة، الواقع في منتصف الطريق، والذي كان له بابان، أحدهما على

أمه، فقد كان يختصر أكثر من نصف المسافة.

فعلاً، إنه يرى الآن نفسه يدخل منزل السيدة المذكورة التي كانت ترحب به كما ترحب المرأة الطيبة بطفل قريب. آه... الآن فقط يتذكر أن هذه السيدة كانت قريبة فعلاً لأمه، لا بل كانت من أقرب الناس إليها، ولعلها كانت أختها من الرضاعة، أعني أن هذه السيدة قد تكون رضعت من أمها، من جدة صاحبنا لأمه. إنه يتذكر أنه سمع ذلك من أهله في ذلك الوقت، أي عندما كان يتخذ منزلها ممراً إلى أمه...

آه... مرة أخرى، كم هي خبيثة وماكرة ذاكرة صاحبنا. إنها الآن فقط تسمح له برؤية ما لم يكن يرى. إنه يرى الآن بأم عينيه تلك الأغراض واحدة واحدة: الحزام المصنوع من مبروم الصوف والملون بالأحمر والأخضر، والخلخال الغليظ المصنوع من الفضة، والجفنية الكبيرة من النحاس، ظاهرها أسود بدخان النار التي توضع عليه لإعداد الماء السخون للغسيل، وباطنها أبيض تتموج فيه نتوءات صغيرة. أما آلة النسج فهي من حديد ثقيلة تزن ما يقرب من كيلوغرام واحد، على شكل مشط ذي أسنان حادة ومقبض من خشب... هذه «الأغراض» التي يتعرف عليها صاحبنا الآن في ذاكرته كان يعرفها جيداً قبل أن تتزوج أمه لأنها كانت تخرجها من حين لآخر من صندوقها لتنظفها وتعرضها على الشمس...

والآن، الآن فقط، عند رقن هذه الكلمات تفتح له ذاكرته آخر ملفاتها. إنه يتذكر أن أمه بعثت في يوم من الأيام بتلك الأغراض إلى تلك السيدة العزيزة على العائلة وطلبت منها أن تحتفظ بها عندها. يتذكر ذلك بوضوح، ويتذكر أنه سمع مراراً من خلال أحاديث النساء في عائلته أن أمه بعثت بتلك «الأغراض» إلى السيدة المذكورة لتخزنها عندها لولدها عندما يكبر ويتزوج...

ما حقيقة تلك الأغراض؟ من أين جاءت لأمه؟ من اشتراها لها؟ وبأية مناسبة؟

الجواب وحيد لا شريك له:

فبما أن تلك الأغراض هي بطبيعتها الأغراض نفسها التي تعود ملكيتها الشخصية للمرأة، لا حق فيها لا للأب ولا للأم ولا للزوج لكون بعضها مما يقدم

لها كمهر وبعضها الآخر مما تجهز به الأم ابنتها حين عرسها (حسب تقاليد البلد)، وبما أن أمه سلمتها للسيدة المذكورة قبل زواجها بذاك الرجل الذي عانت معه... فإنه لما لا يحتمل الشك أبداً أن تلك الأغراض هي كل مهرها وتجهيزها حين زواجها من والد صاحبنا.

كذب من يدعي أو يعتقد أن ذاكرة الإنسان تنسى، أو أن ما بها يتقادم ويتلاشى. كلا ثم كلا. إنها تحتفظ بكل شيء، بما يعيه صاحبها وبما لا يعيه. تحتفظ بالمشاهد والصور والأصوات... وأكثر من ذلك وأهم، تختزن في حرز حريز كل المشاعر والانفعالات التي لم تجد سبيلها إلى التعبير عن نفسها تحت ضغط دوامة الحياة اليومية، حياة الغفلة والتيه والعبث، وحياة المهام والمسؤوليات والطموحات والابتعاد عن الذات...

إن صاحبنا يجد نفسه ميالاً إلى تقرير الحقيقة التالية، وهي أن النسيان المطلق لا وجود له، وأن كل نسيان هو نسيان مؤقت، وبالتالي فكل ما مر بالإنسان من تجارب يبقى مسجلاً في «سجلات» الذاكرة. تارة يستدعي الإنسان ذكرياته إرادياً وبنوع من التركيز، وتارة تقفز الذكريات من تلقاء نفسها إلى الوعي فجأة فتباغت صاحبها، وذلك عندما يكون في غفلة من أمره أو في خلوة تامة تحرره من الارتباط بالمحسوس المألوف وبالهموم والانشغالات. كان صاحبنا يسمع بعض الناس في البلد يقولون: «إذا نسيت شيئاً فقم للصلاة وستتذكره». إن الخلوة تحرر الذاكرة من ضغط الشعور بأشياء العالم. وبما أن الشعور هو دوماً شعور بشيء فواضح أنه إذا لم تكن هناك أشياء خارج النفس تشغل الشعور فإن هذا الأخير سينشغل بنفسه، أي بما في النفس من ذكريات وهواجس وخواطر. وصاحبنا كان فعلاً في خلوة أشبه بخلوة الصلاة حينما كان يتذكر ما كتبناه قبل لحظات.

الذاكرة أمرها عجيب. لقد شعر صاحبنا حينما كان يسترجع لأول مرة، وبعد ستة وأربعين عاماً، تفاصيل وصية والدته له، أنه يسافر في الذاكرة عكس خط اتجاه الزمن، يسافر إلى وراء بلمح البصر، ولكن عبر مراحل، كل مرحلة تربطه بأخرى. كان أشبه بمن يفتح الملفات على جهاز الحاسوب، يمر من ملف رئيسي إلى الملفات الفرعية التابعة له، واحدة بعد الأخرى. فكأن الحفر في الذاكرة كالنقر على الملفات داخل الحاسوب.

لا، إن صاحبنا يجد نفسه الآن مشدوداً إلى فكرة «السفر عكس اتجاه الزمن».

وكانت هذه الفكرة قد راجت في أوائل هذا القرن عندما خرج أينشتاين للناس بنظريته، نظرية النسبية. لقد تقرر أن الشعاع الضوئي الذي ينقل صور الأشياء إلى أعيننا يجري بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، وبالتالي فما نراه الآن، لا نراه كما هو في لحظة رؤيتنا له، بل نراه كما كان عندما انبثق منه أو انعكس عليه شعاع الضوء الذي ينقل إليه صورته. وهكذا فالشمس التي نراها الآن ليست هي الشمس كما هي الآن بل كما كانت قبل ثماني دقائق، وهو الوقت اللازم لوصول أشعتها إلينا. والنجوم التي نراها في كبد السماء نراها، لا كما هي حين نشاهدها، بل كما كانت قبل الزمن الذي يقضيه الشعاع الضوئي الذي ينبعث منها للوصول إلى أبصارنا. وهناك من النجوم ما نراه الآن كما كانت عليه قبل ملايين السنين، بل ملايير السنين، التي قضاها الشعاع الضوئي في طريقه إلينا.

وبناء على هذا يرى آينشتاين أنه إذا وجدت وسيلة يسافر الإنسان عليها بسرعة أعلى من سرعة الضوء فإنه سيكون في إمكانه أن يسافر إلى الماضي عبر ملاحقة أشعة الضوء الحاملة لصور الموجودات ليشاهد الناس الذين رحلوا منذ زمن قريب أو بعيد.

وإذا كان صاحبنا قد تذكر الآن هذا النوع من التصورات العلمية ـ التي ما زالت خيالية حتى الآن على كل حال ـ فإنه يحلو له أن يتخيل ويتمنى لو أن العلم يحقق هذه «المعجزة» أثناء حياته ليغدو في إمكانه أن يسافر عبر الزمن إلى الماضي ليرى والدته ويجلس معها ويحدثها محفوفاً بجدته وجده وجميع من تحدثنا عنهم في هذه الحفريات، وفي مقدمتهم صديق طفولته الأول «حمو زايد».

حلم يقظة...؟ جنون...؟ لا كل ما في الأمر أنه يستعجل قيام الساعة للقاء الأهل والأصدقاء في دار الخلد.

* * *

هنا نقف بعملية «الحفر في الذاكرة»، ذاكرة الطفولة والمراهقة وأوائل الشباب، لنترك المجال، هذه المرة، للقارىء ليحفر بنفسه في نصوص من «مذكرات» صاحبنا ننقلها هنا، كما كتبها أول مرة بدون زيادة ولا نقصان. نصوص تنقل للقارىء حديثه مع نفسه عن «القضايا الكبرى» التي كان عليه أن يقرر فيها، خلال السنوات الثلاث التالية (١٩٥٩ ـ ١٩٦١) التي انتهت بحصوله على الإجازة في الفلسفة وبزواجه بأم أولاده ورفيقة دربه.

فعلاً، لقد انخرط صاحبنا قبل ذلك، ومنذ سنة ١٩٥٨، في تجربة سياسية ما تزال امتداداتها متواصلة، تجربة واكبتها تجربة هموم واهتمامات ثقافية، دراسة وتدريساً وبحثاً وتأليفاً، ما تزال هي الأخرى مستمرة... وفي النية تخصيص كل منهما

نصوص

المرأة... الله... المستقبل

لو سئل صاحبنا اليوم وهو يناهز الستين (قضى منها ثلاثين سنة كأستاذ جامعي بعد أن اشتغل معلماً ثم أستاذاً في الثانوي ثم مديراً لثانوية مما أتاح له فرصة معاشرة الشباب عن قرب، إضافة إلى أنه متزوج، منذ خمس وثلاثين سنة، بأم أولاده الأربعة ـ أستاذتان بكلية الطب، وطبيب، والثالث في الثانوي ـ مع ما خاضه من تجارب واكتسبه من معارف...) لو سئل اليوم:

ما هي في نظرك أهم القضايا التي تشغل بال الشباب، ويتمحور حولها «قلق الشباب» عندما يكون بصدد الانتقال إلى مرحلة الرجولة؟ فالغالب أنه سيستغرق في التفكير، وقد يلجأ كعادته إلى «المراجع» يستشيرها، قبل النطق بالجواب، ولكن من غير المؤكد أنه سيهتدي إلى الجواب الذي تقدمه مذكراته التي كتبها يوم كان شاباً، يجتاز المرحلة المشار إليها، الجواب الذي يعتبره صحيحاً، على الأقل بالنسبة لتجربته الشخصية، ولا يستطيع أن يطعن فيه بأي وجه. هذا الجواب هو:

القضايا الكبرى التي تشغل الشباب وتكون محور «قلق الشباب»، عندما يكونون بصدد الالتحاق بمرحلة الرجولة، ثلاث وهي: المرأة والله والمستقبل.

وفي ما يلي نصوص تحكي كيف عاش صاحبنا هذه القضايا وكيف عالجها. وبجانب كل نص تاريخ كتابته. وهذا التأريخ جزء من النص، بصيغته وعبارته. لقد أدرجت النصوص هنا حسب تسلسل تاريخ كتابتها بدون تغيير ولا تعديل باستثناء بضع عبارات أضيفت للتوضيح ووضعت بين قوسين هكذا ( ) ومع بعض النصوص صورة فوتوغرافية عن فقرات بخط اليد.

ملاحظة: ننشر هذه النصوص كما كتبت أول مرة مع ما في بعض عباراتها من ركاكة. أما الأخطاء النحوية واللغوية فسننبه عليها بكلمة كذا بين قوسين: (كذا).

كتبت إليه رسالة يوم ١٩ آب/ أغسطس ١٩٥٨
وجاء جوابه يوم ٣٠ منه
وكتبت ما يلي يوم ٣١ منه.

سأشق طريقي...

سأشق طريقي رغم الزعازع والإعصار،
رغم العقبات الطول،
رغم الوحشة والظلام.
سأشق طريقي غير عابىء بها،
لا، ولا بدلالها وإغرائها.
فليمت ذلك الوليد،
ولأدفنه دفناً.
وليقل، ولتقل هي ما شاءت.
فقد دأب الناس،
منذ قديم الزمان،
على القيل والقال.

سأشق طريقي رغم القيل والقال،
رغم الغموض الحالك،
رغم الوليد الميت.
فأنا قلبي وضاء،

ينير الطريق،
طريق الغد،
طريق الحياة.

كتبت إليه رسالة يوم ١٩ أغسطس ١٩٥٨
وجاء جوابه يوم ٢٠ " "
وكتبت ما يلي يوم ٢١ " "

ماشية طريقي.

ماشية طريقي رغم الزعازع والأعاصير،
رغم العقبات الطوال،
رغم الوحشة والظلام،

ماشية طريقي غير قابلة للرجوع،
لا، ولا بد لها وأعراسها،
ليمت ذلك الوليد،
ولأدفننه دفنا،
وليقل، المستقبل ما شاءت.

فقد دأب الناس،
منذ قديم الزمان،
على القيل والقال.
ماشية طريقي رغم القيل والقال،
رغم الفوضى الحالك،
رغم الوليد المسجى،

فأنا قلبي وضاء،
ينير الطريق،
طريق الغد،
طريق الحياة.

إيه يا حياة، كل ما فيك جميل،
إلا هذا الوليد، هذا الدفين،
هذا الذي قبرته بدون كفن،
في ماضي القريب، في قلبي الحزين.

شعاع بارق كان ذلك الوليد؟ (كذا)
كان فجراً كاذباً خبت أضواؤه سريعاً.
كذب الخيط الأبيض فهو أسود.
أسود كالشعرة الرفيعة،
تبدت في الثوب الأبيض،
كالخال في وجه الوليد،
الوليد الحي الصغير.

كان آمالاً عجافا.
كان طيفاً خداعا.
كان شبحاً مغرياً.
فعرفته منذ البداية،
مذ كان نطفة في باب المدرسة.
ذلك الباب الكبير.
فالتقى الحديد بالحديد.
فالباب حديد.
وقلبي حديد.
ونما الوليد،

فعاش عيش الفحيل،
حتى كان يوم من الأيام،
يوم اشتد الحر بي بالدار البيضاء،
فذاب الحديد وانتعش الوليد.
فسرت به إلى الحدائق والزهور، حيث الرجيق،
حيث يوجد النهر الرقراق،
ينساب بين الجذوع.
حملته إلى الحشيش الأخضر،
حيث الريح تلعب بالسوالف الطول.

آه من السوالف الطول،
ومن الأعناق والخصور
والسيقان والصدور.
في الغابة،
بين الخميلة،
في ضفة النهر،
في مياه المسبح.
إنها الجنة: جنات نعيم،
حيث الغيد الحسان،
واللباس شوال.
(هناك في إيفران)

وانتعش الوليد من جديد،
وألقى بقيد الحديد،
في مياه الشلال فتكسر الحديد

وذاب، وطفا نقطة سمراء
على ضفة الماء.
فحملته الأمواج بعيداً:
إلى الموج الهادر،
إلى البحر المحيط.
فضاع في اللانهاية.
واستراح الوليد.
وعاد يقتات من الرحيق كالنحلة.
ينتقل من الوردة إلى الزهرة،
زهرة الحب الوليد.

وطغت الجرثومة،
تماماً كجرثومة الضرس.
وغرق القلب،
وسهرت في الفراش،
ونزلت من السرير إلى الأرض،
وصعدت من الأرض إلى السرير،
ألف مرة ومرة،
وأنا وحيد،
غير رفيق جديد، وجدته هناك.
هناك في الغرفة ذات الأسرة التسع، (كذا)
أمام الشلال الصغير والبحيرة الدافئة،
تظللها أشجار الوادي.
(هناك في مأوى الشباب)

لقد شب الوليد
ونخر الحديد.
فعزمت على الرحيل.
وكان ذلك الوقور،
ذلك الشيخ الصالح،
كان في غياب.
وأبطأ، وقيل لن يعود.
واشتد بي النزول والصعود،
فأرقت ساعات، بل ليال،
ليال طوال،
كتبت بعدها في الفجر رسالة.
لكني أنا الوقور الصغير،
مزقت الرسالة،
وحملتها مياه النهر الرقراق،
إلى بعيد،
إلى حيث توجد نطفة الحديد
في المحيط الزاخر، في الموج الهادر.
ذاب الحديد، وذابت الرسالة،
فاستحالا دخانا،
طار مع الهواء
إلى نفسي المتقطع
إلى صدري المريض.

وانتعش الوليد بذلك الدخان من جديد

فعزمت على الرحيل،
وجندت إرادتي، هذه الصماء،
ولم تسمع لنداء قلبي المريض.
فركبت السيارة
وهربت من الجنة
إلى شاطىء المحيط،
إلى الدار البيضاء.
وكتبت رسالة،
رسالة اعتذار كاذب،
وقلت أنا مريض
دوائي في شاطىء المحيط.

ومضت أيام وأنا لا أطيق السرير.
وتمالكت وصمدت،
وكان كتابي رفيقي الوحيد.
آه ما أجمل الكتاب،
الصديق الصامت
الخليل الصادق.

وصبيحة يوم مشرق
ذهبت إلى الباب المعلوم،
الباب الحديدي.
فإذا الشيخ الوقور،
فسلمت وسلم
وقال: «وصلتني الرسالة

إنها مشؤومة. احقا انت مريض؟
يعز علي ذاك وأنت الوقور الصغير».
قلت كاذباً: «لقد شفيت.
كانت ضرساً ضروساً عالجها الطبيب»
وما رأيت الطبيب.

ما أسهل الأعذار
وما أكذب الإنسان.
ومرت أيام وأيام،
علها شهور علها سنون.
وسافرت بعيداً، بعيداً،

على المحيط الهادر،
وعلى البحر الأبيض الصامت.

وكانت تسعة شهور.
(قضيتها في دمشق)
وما نسيت ذاك الوليد.
مع أني انشغلت بوليد جديد.
فالتقى الوليدان: القديم والجديد.
هناك انبثق الجديد،

في بيت الطبيب،
طبيب العيون.
وكانت قصة بل مسرحية،
كتبها صديق حميم. (= محمد إبراهيم بوعلو)
سلام عليك حيث أنت، بعيدا،

يا صديقي الحميم. (كان ما يزال في دمشق)

وقرأت المسرحية.

وكان العنوان:

أنت ـ قارئي ـ تعرف العنوان.

إنه: «فلان المريض».

نعم كنت أنا المريض.

ولكن سرعان ما داواني الطبيب.

لا بنترات الفضة،

ولا بقطرات ذلك السائل الأبيض.

داواني الطبيب،

بل بيت الطبيب،

بل تلك اللابسة البياض.

كان اسمها ليل.

لكنها بيأس أشارت:

لا فائدة، غير ممكن، لا فائدة.

كانت هناك حدود وحواجز،

غير قابلة للاختراق.

ومضت أيام وأيام

واستيقظ الوليد، وليد الحديد.

فركبت البساط، بساط «فريد».

وعدت إلى شاطىء المحيط.

وقد كبر الوليد من جديد

وأصبح ذا يد من حديد،

تعصر القلب عصراً.

بحثت منذ اليوم الأول،

هناك في بيت الشيخ الوقور.
ولم أجد الرحيق.
آه، كان بعيداً في الحدائق والزهور.
بين الخمائل والحشيش
في المسبح والشلال
«شلال العذارى».
آه، يا قلبي المريض،
شخت وأنت شاب
شيبك الأرق، أنهكك التفكير.
آه، سأقطع الداء
الداء العضال.

وكتبت الرسالة،
الرسالة الخطيرة.
كانت غريبة.
ولكني أنا الوقور،
كنت هذه المرة،
ربما سخيفاً، ربما جسورا.
وألقيت بالرسالة في صندوق البريد.
كانت تحمل آمالي العجاف.
نعم كنت أعرفها كذلك.
فعقلي مع قلبي صريح،
وضميري لنفسي نصيح.

الجواب العزيز من الشيخ الوقور.

كان يحمل حقيقة.

كانت الحقيقة مرة.

نعم، أنا لا أخشاها ولو كانت مرة.

فواجهت الواقع،

وانتزعت صفحة الماضي،

من كتاب تاريخي الطويل.

وأتيت بملقط فضي،

فانتزعت الشعرة،

تلك الشعرة السوداء،

انتزعتها برفق وحكمة،

من الثوب الأبيض.

واشتريت مقصاً رفيعا

فأزلت النقطة،

ذلك الخال الأسود،

من قلبي المنير.

آه، ما أجمل الحقيقة

ما أجلها ولو كانت مرة.

فالثوب اليوم ناصع البياض،

وقلبي قمر ولا كلف.

آه، الآن سأشق طريقي،

رغم ذكريات الماضي.

رغم الزوابع والإعصار.

رغم الرعود والأمطار.

رغم الفيافي والقفار.
إنها الحياة، الحياة الجميلة،
أعيشها مع المحيط الهادر
وأنا أسخر من تلك النقطة،
نقطة الحديد الماضية.
سأذهب إلى الشاطىء
سأدفع الماء، بعيداً بعيدا،
حتى تغيب في اللانهاية
تلك النقطة السوداء
مع الرسالة الممزقة.

آه، ما أحلى الحياة، حياة الواقع.
سأشق طريقي باسما،
سأسير ضاحكا،
سأنام هادئا.
لا أرق ولا صعود ولا نزول.
سأشق طريقي، سأذهب بعيداً، بعيدا
من جديد. (إلى دمشق)
لأعود في يوم جديد.
حينذاك فقط
سيطلع الفجر الحقيقي،
ويبدو الأبيض من الأسود،
ويضيء الصباح،
الصباح الجميل،

وتشرق الشمس،
الشمس الحقيقة،
فتنير أمامي الطريق
وأبدأ الحياة من جديد،
ثم أشق طريقي إلى النهاية
مع وليد آخر غير القديم.
نعم سأشق طريقي إلى النهاية
فلا كانت، ولا كان ذاك الوليد.

التوقيع

في ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨

إلى أين أسير. . .؟

أن أعرف إلى أين أسير، حاضراً ومستقبلاً، فهذا ما أنا في حاجة إليه، وهذا ما أسعى إليه ولكن دون نتيجة. . نعم دون نتيجة أسفرت تأملاتي لوضعيتي الشاذة، وهي رغم شذوذها إلا أنها غير مؤلمة. . . أنا لا أتألم من الحال التي أعيش فيها بقدر ما أنا محتاج إلى قرار حاسم أقرر به بدايتها ونهايتها. .

لقد قررت في السنة الماضية الذهاب إلى سورية. . وها إني قضيت فيها سنة وحصلت على شهادة الثقافة العامة من الجامعة السورية.

إنه شيء عظيم أن أصبح طالباً جامعياً. . لم أكن أحلم حتى في طفولتي بالالتحاق بالجامعة رغم خيال الطفولة. ولم أكن أتصور أثناء فترة مراهقتي أني سأصبح بعد أيام قلائل شاباً له مكانة مرموقة في الوسط الذي يعيش فيه رغم أحلام اليقظة التي تستولي عادة على المراهقين. . . وفترة الشباب هذه التي أجتازها الآن. . هل حقيقة أنها فترة النشاط والعمل في حياة الإنسان، هل هي حقيقة فترة الآمال والأماني وأنها المرحلة التي يعيش فيها المرء بخياله مندفعاً إلى الأمام. . . هل صحيح أنني شاب. . شاب في العقد الثاني من العمر. . . أين سمات الشباب من سماتي. . لم يسبق لي أن كنت شاباً حتى أعرف سمات الشباب. . ولكني حدثت عنها كثيراً. . حدثني الأفراد شفاهة، وحدثني الرجال كتابة في مؤلفاتهم وكتبهم. .

ليس من الصعب على الإنسان أن يعرف هل هو شاب حقاً أم صبياً (كذا) أم رجلاً (كذا) فالمراحل الزمنية بينة واضحة. . ولكن الصعوبة كل الصعوبة في معرفة المرحلة النفسية التي يجتازها المرء. . . من قال لي إني شاب. . . ومن عرف أني أقاسم الشباب آمالهم وأمانيهم. . . اندفاعهم وثورتهم. لست أدري من أمري شيئاً. . إذن كيف يمكن لغيري أن يدري عني أشياء.

لست صبياً بالطبع لأن الصبي لا يفكر هذا التفكير. . . ولست كهلاً لأن

الكهل معناه بلوغ درجة من النمو النفسي والعقلي يستطيع الإنسان بها قيادة مقود حياته بمهارة تنجيه على الأقل من زوابع الأيام وعواصف الساعات... ولست شيخاً لأني لم أحاول قط النظر إلى الوراء. لم أفكر في حياتي الماضية لأني لم يسبق أن عشت حياة تستحق أن يتذكرها الإنسان.. إنها قصيرة جد قصيرة. قصيرة إلى الحد الذي لم أعد أعرفها رغم أني لا زلت أتذكر خطوطها الكبرى. لم أعد أعرف كيف كنت أحيا عقلياً ولا مادياً. كل ما أعرفه الآن هو أني كنت مثلما أنا اليوم. هذا كل ما أعرف. أما كيف أنا اليوم فهذا ما لا أستطيع التعبير عنه.. إنه القلق إن شئت.. إنه الاضطراب. قل ما شئت من هذه الكلمات ومن مرادفاتها... قل إني تائه في خضم هذه الحياة التي لم أعرف لها نهاية (اقرأ: بداية) ولم أدرك بعد لها نهاية. أنا لا أعني بالحياة حياة عامة الناس أو الحياة الدنيا إن كانت هناك حياة عليا.. إني أعني حياتي الخاصة.. الحياة التي أراها أنا. لست أدري كيف أصف نفسي من منظاري الخاص. قد يكون ضيقاً هذا المنظار وقد يكون واسعاً.. لست أدري..

أنا شاب بحكم الظروف.. ولكن أين مني سمات الشباب. إذا كان الشباب معناه اللامنهجية واللامبالاة كما ألاحظ في أقراني الشباب، فتباً للشباب، وتباً للطفولة التي تؤدي حتماً إلى فترة الشباب. كيف أصف نفسي... كيف أقول للناس أو لنفسي.. أنا أعيش في حيرة وارتباك رغم ما عرفت به من رزانة وتعقل.. هكذا عرفني الناس وما عرفت نفسي قط بذلك. إن الرزانة والتعقل في نظري، حينما أفكر كشاب، معناهما العجز والفشل.. معناهما الحيرة والارتباك. من قبل قلت لنفسي:

سأشق طريقي

رغم الزوابع والإعصار

رغم العقبات الطول

رغم الوحشة والظلام

لقد كتبت هذه السطور.. وأنا كعادتي في التقرير والنقض أراني الآن عازماً على نقض ما كتبت... إني نادم عما كتبت رغم أني كنت متشوقاً قبل دقائق إلى كتابة شيء ما.. كنت أريد الكتابة.. وكنت أظن أني سأكتب أحسن مما كتبت.

إني غير راض عن نفسي، عن الحياة التي أعيشها.

الثلاثاء ١٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨

المستقبل. . ؟

المستقبل. . آه من المستقبل ومن غموضه ومن الحيرة التي يبعثها في نفس المرء وبالأخص في نفس الشباب. . آه من الغد الحالك. . الأبيض. كيف سأشق طريق الغد. كيف سأفعل لأعيشه أبيض ناصعاً لا أسود حالكاً؟ كيف أقرر مستقبلي وأنا لا أعرف ماذا تخبئه لي الأيام؟

آه. . هل سأبقى في المغرب أم سأذهب إلى سورية. إن الوقت يحتم علي أن أقرر بكل وضوح. . . إنها أشهر ثلاثة مرت وأنا في حيرة وتردد. . كلما قررت أمراً إلا وبدا لي عكسه هو الصواب. . (كذا)

من الأفضل؟ البقاء في المغرب أو الذهاب إلى سورية. . آه إنه السؤال الطويل العريض. . السؤال الذي لا حل له. . لا لأنه معقد ولكن البت في الجواب عنه هو المغامرة بالذات (. . .).

علي أن أقرر. . ولكني عاجز عن التقرير، عاجز عن البت في هذا الأمر أو ذاك.

التوقيع

وحداني . . .

«وحداني حاعيش كدا وحداني». مقطع من أغنية لفريد الأطرش إليها يرجع الفضل في كل ما سأكتبه هذه الليلة، بل لها الفضل في حفزي على الكتابة الآن.

وحداني حاعيش . . . هل سأعيش وحيداً دائماً. هل سأعيش مع الأيام وحدي في بيت كهذه التي أوجد بين جوانبها، واسعة عالية ليس يجاورني أحد، بيني وبين الطلاب الذين يسكنون في هذا «المأوى» مسافة لا تقل عن نزول خمسين درجة من السلم.

هل سأعيش هكذا وحيداً مع الأيام. هل سأبقى بمعزل عن الدنيا وملذاتها دائماً؟

أنا أحب الوحدة ولم أشعر قط بالوحشة إلا في بعض الأوقات كهذه، ولكن حتى هذا الشعور ليس من العمق بحيث يصرفني عن أعمالي الدراسية التي تستحثني الآن لمتابعتها.

ماذا ينقصني، هل الزوجة أم الخليلة أم شيء آخر؟

إني لست أدري.

أنا أخشى من الزوجة في هذا الوقت على الأقل، وأخشى من الخليلة في كل وقت. إذن ليكن خليلي الكتاب وكفى. فأنا لا أرضى بغيره خليلاً.

التوقيع

أريد أن أكتب! نعم أنا أشعر بميل لأن أكتب.. ولكني لا أدري ما الذي ينبغي أن أكتبه. إني لا أعرف بالضبط هذا الشيء الذي أريد كتابته. ولكن ما هي الكتابة، وما نوعها وما الغرض منها هذه التي أتكلم أو أكتب عنها. ما المقصود بالكتابة.. كتابة حروف جامدة كهذه التي سبقت، أم أن هنالك نوعا آخر من الكتابة ينبثق ما في الصدر من ألم وشعور ملح نحو الكتابة. الكتابة كما أعرفها ويعرفها الجميع هي تعبير عن فكرة أو جملة أفكار.. والفكرة هي أو جملة الأفكار هي الكلام النفسي الخفي والذي بدونه لا يمكن أن توجد نفس إنسانية يكون صاحبها جديرا بأن يسمى إنسانا. كل فكرة هي كلام النفس وكل نفس متكلمة هي نفس إنسان. إذن الإنسان شيء له نفس تتكلم. وكلام النفس قد يكون شعوريا كهذا الذي أكتب أو تقرأ أنت أيها القارئ. وقد يكون ذلك الكلام غير شعوري كذلك الذي تتكلمه وأنت نائم أو أنت مشغول بشيء آخر يصرفك عن التعرف إلى كلام نفسك.

ترى هل يستطيع الإنسان أن يبقى بدون أن يفكر تفكيرا شعوريا بمعنى هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا شعور؟ فقد؟ إن المسألة إذا هذا المعقد من كوجيطو ديكارت. إلا أننا إذا

أريد أن أكتب. . .

أريد أن أكتب. نعم أنا أشعر بميل لأن أكتب. . ولكني لا أدري ما الذي ينبغي لي أن أكتبه. إني لا أعرف بالضبط هذا الشيء الذي أريد كتابته. ولكن ما هي الكتابة، وما نوعها، وما الغرض منها، هذه التي أتكلم أو أكتب عنها. ما المقصود بالكتابة؟ كتابة حروف جامدة كهذه التي سبقت، أم أن هناك نوعاً آخر من الكتابة يشفي ما في الصدر من ألم وشعور ملح نحو الكتابة. الكتابة كما أعرفها ويعرفها الجميع هي تعبير عن فكرة أو جملة أفكار. . والفكرة أو جملة الأفكار هي الكلام النفسي الخفي الذي بدونه لا يمكن أن توجد نفس إنسانية يكون صاحبها جديراً بأن يسمى إنساناً. كل فكرة هي كلام النفس، وكل نفس متكلمة هي نفس إنسان، إذن الإنسان شيء له نفس تتكلم. ولكن كلام النفس قد يكون شعوراً كهذا الذي أكتب أو تقرأ أنت أيها القارىء. وقد يكون ذلك الكلام غير شعوري كذلك الذي تتكلمه وأنت نائم أو وأنت مشغول بشيء آخر يصرفك عن التعرف إلى كلام نفسك.

ترى هل يستطيع الإنسان أن يبقى بدون أن يفكر تفكيراً شعورياً؟ بمعنى هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلاشعوره فقط؟ إن المسألة هنا أعقد من كوجيطو ديكارت، لأننا إذا قلنا: «أفكر إذن أنا موجود»، أو كما قال ديكارت نفسه (cogito ergo sum) فإن التفكير هنا ينصرف إلى التفكير الشعوري، أو بعبارة أخرى إن نفس ديكارت حين كان يفكر في هذه الجملة الخالدة التي قالها، إنه أي ديكارت كان يفكر بكل شعوره. والدليل على ذلك أنه كان يفكر في تعريف الإنسان أو في إثبات وجوده على الأصح. إذن التفكير كان عند ديكارت تفكيراً شعورياً.

الحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلاشعوره فقط مدة طويلة من الوقت، لأنه لا بد أن ينشغل بما يرى أو بما يسمع. وإذا كان أصم أعمى فإنه، ولا شك، لا بد أن ينشغل بالتفكير فيما حوله، لا بد له أن يتساءل عما يحيط به وكيف هي الحالة التي يوجد عليها.

ولكن إذا فرضنا أن إنساناً ما ولد بمعزل عن الناس وعن الأشياء المثيرة للتفكير وأنه ولد بدون بصر ولا سمع فكيف سيكون عليه هذا الإنسان إذا قدر له أن يعيش وأن يحيا حتى يصبح رجلاً؟ ولكن هل يمكن واقعياً أن يولد الإنسان

ويبقى على قيد الحياة حتى يصبح رجلاً دون أن يحتاج إلى طعام وشراب وملبس ومسكن؟ الحقيقة خلاف ذلك. إذن لا بد أن ينشغل الإنسان حتى في هذه الحالة بالأشياء التي تحيط به والتي هي على الأقل مأكله ومشربه ومسكنه وملبسه. إذن الإنسان لا بد أن يفكر تفكيراً شعورياً مهما كانت الظروف التي يوجد فيها. فهو إذن كائن موجود حسب تعبير ديكارت.

والآن لنتساءل: هل يستطيع الإنسان أن يعيش بشعوره فقط؟ بمعنى أن يكون كلامه النفسي صادراً عن شعور وإدراك، دائماً الجواب على هذا السؤال لن يؤدي إلى نتيجة أحسن من الأولى، إذ كيف يستطيع الإنسان أن يعيش وهو يفكر في كل لحظة. إنه في حاجة إلى النوم وفي حاجة إلى الراحة، ثم إنه حتى في أوقات عمله كثيراً ما يحدث أن يعمل الإنسان وفكره شارد ونفسه تتكلم دون أن يشعر هل هو يفكر أم لا. إن مثل هذا التفكير لا دخل للإرادة فيه. إنه صادر عن اللاشعور. وهذا النوع من الكلام الصادر عن اللاشعور هو أشبه شيء بأحلام اليقظة، بل إن هذه نوع من ذاك.

إذن، الإنسان، بحق، لا يستطيع أن يبقى بدون تفكير، سواء كان هذا شعورياً أو لاشعورياً. ومن ثم فإن الإنسان لا بد له من وسائل التعبير عن هذا التفكير. وعلى الأصح لا بد له من ذلك إذا كان اجتماعياً على الأقل. فالتعبير من الضروريات التي تستلزمها الحياة. نعم قد يستطيع الإنسان، أو قد توجد حالات يوجد فيها الإنسان غير قادر على التعبير كأن يفقد مثلاً وسائل الكلام والكتابة والإشارة مهما كانت بسيطة. ولكن لا بد من تعبير من نوع آخر كيفما كانت حال الإنسان. وقد يكون هذا النوع الآخر غير نوع التعبير عن الفكرة بل التعبير عن الإحساس والشعور. ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يكون دون إحساس وشعور فإنه لا بد له أن يعبر عن هذا الإحساس والشعور، فهو في حاجة أن يعبر تلقائياً أو لاتلقائياً عن ألمه وفرحه.

الإنسان يجوع ويعطش، وتناوله الطعام والشراب هو تعبير عن الرغبة في الأكل والشراب، أي إحساس بالجوع والعطش. وإذن فالذي دفعني إلى الكتابة هو شعور بالحاجة إلى الكتابة، هو إحساس بأني أريد أن أقول شيئاً هو التعبير عما كان يختلج في صدري.

ولكن أنا أعرف تمام المعرفة أن الذي كتبته حتى الآن لم يكن لدي منه ولو

بل كيف كنت أفكر فيه في الوقت الذي كنت أعبر عنه؟ أنا أفكر وأعبر في آن واحد. ولما كان لدي شعور واحد فلا يمكن أن يكون هناك فارق بين التفكير والتعبير. لماذا؟ لأن التعبير يكون بالكتابة أو بالكلام أو بالإشارة أو بما شاكل ذلك. ولما كنت أكتب فقد كنت أتكلم كلاماً نفسياً. إذن كنت أعبر. ولكن في الوقت الذي كنت فيه أعبر كنت أيضاً أفكر. ولكن التفكير كما قلت سابقاً هو كلام النفس. إذن فالتفكير على هذا هو التعبير. ولكن علي أن أستعمل هنا كلمة «تعبير» بمعنى أوسع: فقد يكون التعبير موجهاً إلى الشخص الذي أتكلم معه أو الذي سيقرأ هذا الذي كتبته. كما أنه، أي التعبير، قد يكون موجهاً إلى نفسي فقط. أما إذا كان التعبير يراد به إفهام المخاطب، كلاماً أو كتابة، وهذا المخاطب خارج عن نفسي، فإن التفكير حينئذ سيكون غير التعبير. وهناك مسألة أخرى جديرة بالاهتمام وهي أن الذي يحس شيئاً يعبر عنه أحياناً. فالتعبير هنا عن إحساس وشعور لا عن فكرة. ومن ثم يكون التعبير أوسع مجالاً من التفكير إذ إنه إما أن يكون تعبيراً عن فكرة أو عن إحساس. ومن هنا نأتي إلى نتيجة أخرى جديدة وهي أن التعبير مستقل عن التفكير كما أن هذا مستقل عن ذاك، إذا غضضنا الطرف عن كلام النفس الذي هو التفكير بعينه.

إن الأمور هنا رغم ما كتبت لا زالت غامضة، وأظن أن هذا الغموض لن يزول. وربما كان السبب في ذلك ضيق اللغة عن وسع جميع ما يحتاج الإنسان وما يجري في عقله. لماذا كانت اللغة أقصر من أن توفي بما في قلب الإنسان وعقله؟ لماذا كان هذان أوسع أفقاً من تلك. قد يكون الجواب بسيطاً إذا قلت إن الإنسان من صنع صانع أقوى من الإنسان وأن اللغة هي من صنع الإنسان فقط.

ومن ترى يكون هذا الصانع الأقوى...؟

اللّه

إن خالق الإنسان هو اللّه إذا كنا مؤمنين، وهو شيء آخر إذا كنا ملحدين.

ولكن من يكون هذا الشيء الآخر؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من الافتراض..

يمكن أن نفترض مثلاً أن الإنسان خالد لم يخلق، أي أن الإنسانية باقية إلى

الأزل (اقرأ: الأبد) كما كانت منذ الأزل. ويمكن أن نتصور أن الإنسانية لن تفنى لأن كل جيل سيعقبه جيل آخر إلى ما لا نهاية له. وعلى هذا الأساس يمكن أن نتصور أن الإنسان قديم قدماً ليس له مبدأ لأننا يمكن أن نقول أيضاً إن كل جيل قد نشأ عن جيل قبله.

وإذا سلمنا بهذا فيما يخص الإنسان فمن السهل أن نسلم به فيما يخص الطبيعة والحيوان وكل ما هو موجود. نعم إن الأشياء ليست اليوم كما كانت عليه منذ ملايين القرون ولكنها على كل حال كانت موجودة وما تبدلها بناف عنها صفة الوجود. إن الإنسان يظل موجوداً من يوم أن يكون طفلاً حتى يكون كهلاً. فرغم التغييرات التي تطرأ له (كذا) في هذه الحقبة من الزمان فإنه على كل حال متصف بصفة الوجود.

وهنا يجب أن نتساءل: هل يمكن أن يوجد شيء مستقل عن التغير، أو بعبارة أخرى هل يمكن أن يستقل الوجود عن الصيرورة. إن المشاهدة تدل على عدم إمكان افتراقهما. إن هذا الكتاب الذي أمامي لم يكن كتاباً أول الأمر. ربما كان جزءاً من شجرة أو من نبات. ولن يبقى كما هو إلى الأبد بل سيتلاشى فيصبح تراباً أو يحرق فيصبح رماداً. فالمادة ستكون موجودة على كل حال ولكن الذي ينعدم هو الصيغة التي تأخذها تلك المادة، أي أن الوجود مقترن بالصيرورة.

ولكن هناك شيء (كذا) أعمق من هذا. وما دمنا في باب الافتراض فلنفترض أيضاً أن الأرض التي يوجد عليها الإنسان قد اضمحلت وزالت كل حياة عليها. ألا يكون هذا خاتمة لوجود الإنسان الذي قلنا عنه إنه أزلي؟

ولكن قبل التفكير في الإجابة على (كذا) هذا السؤال يجب أن نسأل.. كيف ستصبح الأرض عندما تضمحل؟ لا بد أن تصير شيئاً، دخاناً، تراباً، ماء، أو أي شيء آخر. إذن هنا نرجع أيضاً إلى القول بأن الذي حدث هو تغير فقط. أي تغيرت الأرض وتغير الإنسان معها. ولكن هل يمكن أن نسمي ذلك الشيء الذي

على الافتراض ويمكن ان نسترسل في مثل هذا الكلام إلى ما لا نهاية له مستندين إلى الافتراض المحض.

ولكن، الافتراض ليس هو الحقيقة بل الحقيقة مستقلة عن الافتراض.

إذن فمن هو خالق الإنسان إذا أزلنا الافتراض من عقولنا؟

قد يقال إن الإنسان كان طيناً أو ماء أو تراباً أو أي شيء آخر ثم تطور ودخلته الصيرورة حتى أصبح إنساناً. وربما تدخله الصيرورة نفسها حتى يصبح إنساناً من نوع آخر.

ولكن على كل حال سيبقى لنا دائماً أن نتساءل: من خلق أصل الإنسان؟ من خلق الماء والطين والتراب أو الشيء الآخر؟

في استطاعتنا أن نرجع كل شيء موجود في هذا العالم إلى شيء واحد دخلته الصيرورة. ولكننا لن نستطيع أن نوجد خالقاً لذلك الأصل، لأننا سنغرق في لج التسلسل أو الدور، وهذا ما لا يؤدي إلى الحقيقة أبداً.

وعلى ذكر الحقيقة يجب أن نعرف هنا معناها الذي نقصده. الحقيقة هنا ليست شيئاً ذاتياً نلمسه بأيدينا أو نراه بأعيننا، بمعنى أنها ليست كائناً ولا مخلوقاً، إنها فقط الاقتناع والاطمئنان. فإذا قنعت نفسي واطمأنت نفسي إلى أن هذا الذي أكتب به قلم وليس حجر (كذا) فمعنى هذا أني مؤمن بأن هذا الذي بين أصابعي قلم. والحقيقة كامنة في كونه قلماً بحيث إن هذه الحقيقة تمنعني منعاً كلياً من أن أعتقد أنه خبز أو ورق. وعلى هذا فالوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بخالق الإنسان والكون بأجمعه معناه الاطمئنان والاقتناع بحل مرض لهذه المشكلة. ومن صفة هذا الحل الذي يمكن أن نطمئن إليه ونقتنع به أن يكون ثابتاً لا يتغير، بمعنى أن يكون غير قابل للشك ولا للتأويل أبد الدهر.

إن القول بأن المادة موجودة وجوداً ذاتياً مستقلاً وأنها تكيف نفسها (بتفكير أو دون تفكير، بشعور أو بدون شعور) لتصبح جماداً وحيواناً وإنساناً أو نوراً وظلاماً وهلم جرا، إن القول بذلك لا يعفينا من البحث عن أصل العالم لأنه لو كانت المادة هي الأصل فإننا سنجد أنفسنا أمام افتراضين:

١ ـ إما أن لها خالق (كذا).

٢ ـ إما أن ليس لها خالق.

١ ـ فإذا كان لها خالق فمن هو؟ وحينئذ يكون ذلك القول لا يعبر عن الحقيقة المطلقة، لأنه يستدعي الشك بطبيعته. وهذا الشك يتجلى في تساؤلنا كيف كانت المادة قبل أن تدخلها الصيرورة. على أننا قد سلمنا قبل أن الوجود مقترن بالصيرورة. وهذا سيؤدي بنا إلى التساؤل أيضاً عما إذا كانت المادة الأولى الخالقة خالية من الصيرورة أم لا، وإذا كانت خالية منها فكيف دخلتها من بعد، وإذا لم تكن خالية منها فكيف يمكن أن نتصور وجود المادة والصيرورة على مر الزمن؟ لا يمكن ذلك مطلقاً لأننا إذا قلنا بذلك ورجعنا القهقرى فإننا سنجد أنفسنا أمام مشكلة أعقد من الأولى، مشكلة عويصة جداً. ولا حل لها أبداً لأن كل محاولة لحلها تستدعي الافتراض، والافتراض بعينه شيء مخالف للحقيقة تماماً. ذلك لأنه من صنع أفكارنا، وأفكارنا لا تستطيع أن تصنع الحقيقة لأنها (= الحقيقة) كما قلنا ذاتية مستقلة تمام الاستقلال عما عداها.

٢ ـ أما إذا قلنا إن المادة موجودة دائماً وأن الوجود صفة لازمة لها بحيث لا يمكن تصور المادة دون أن تكون موجودة وأنها بحكم وجودها المطلق تكيف نفسها تكيفات شتى وأن هذه التكيفات عمل إيجادي، أي أنها هي التي توجد الأشياء، وبذلك تكون هي صانعة الصيرورة، إذا قلنا بذلك فإننا لن نسلم من الشك، إذ من يثبت لي، حتى أقتنع وأطمئن، أن المادة تتصف بما ذكر. لا شيء على الإطلاق. إذن هذا أيضاً مجرد افتراض.

وهكذا نرى أن الافتراض الذي افترضناه أولاً لم يؤد بنا إلا إلى عدة افتراضات. فالافتراض لا يؤدي إلا إلى الافتراض ولا يمكن أن يؤدي أبداً إلى الحقيقة. وما قد يفترضه العلماء الرياضيون من مسائل يثبتون صحتها من بعد فإن افتراضهم ذاك لم يخلق الحقيقة ولم يؤد إليها بل إنما وصلوا إليها صدفة. ذلك لأن الحقيقة كانت موجودة قبل أن يقوموا بالافتراض مع العلم أن افتراضهم ذاك كثيراً ما يؤدي إلى الفشل، فليس حقيقياً أن كل افتراض يؤدي إلى الحقيقة، وربما أدى إلى ما قد يبدو حقيقة ولن (اقرأ: لكن) لا يلبث أن ينكشف أنه ليس من الحقيقة في شيء.

لنعد الآن أدراجنا بعد ما تأكد الشك في كون الإنسان خلق نفسه أو خلقه أي شيء آخر غير الله، ولنقل الآن إن خالق العالم هو الله.

ولكن ما هو الله؟ ما هي صفاته؟

هذا الخالق؟ قد يقال إن الكون نفسه يثبت أن هناك خالقاً له. هذا صحيح لأن الكون مخلوق لم يوجد نفسه. وكل مخلوق لا بد له من خالق. نعم هذا صحيح. ولكن من قال لنا إن الذي أوجد الكون هو الله؟ وإذا سلمنا بذلك فمن هو الله؟ قد يقال إنه لم يخلقه أحد لأنه إذا كان ذلك فلا بد من خالق له، وهكذا نرتمي في الدور أو التسلسل.

قد يقال إن رسل الله هم الذين قالوا إن الله موجود وأنه خالق الكون. ولكن من هم رسل الله وما أدراني أن الذي يقول ذلك (هو) رسول الله حقيقة؟ وإذا كان الله هو خالقنا، فلماذا يرسل إلينا رسلاً ليبلغونا ما يريد أن نفعل وما يريد أن نجتنبه؟ ألا يمكن له أن يدلنا هو نفسه على ذلك ما دام هو الذي خلقنا؟

إن المنطق يقتضي أن نبحث أولاً لماذا يحتاج الله إلى إرسال رسله إلى الناس قبل أن نبحث هل حقيقة هؤلاء هم رسل الله؟

إذن لماذا يرسل الله رسله، ولماذا لا يقول لنا بصفة مباشرة أو غير مباشرة ما يريد أن نفعل وما يريد أن نترك؟

قد يقال يفعل ذلك لكي تستقيم حياتنا. ولكن يمكن أن نقول لماذا لم يجعلها أول مرة مستقيمة؟ ففي استطاعته ذلك دون شك.

قد يقال أيضاً إنه أراد أن يجعلنا كما نحن عليه بحيث يقتضي وجودنا وتصرفاتنا أن يكون هناك من يرشدنا إلى ما فيه صلاحنا. نعم هذا مقبول لو اقتنعنا سلفاً بأن الله موجود، ويجب أن لا ننسى أننا نريد إثبات وجوده بواسطة رسله.

من الممكن القول بأن معجزات الرسل هي الدليل على أنهم رسله ومن ثم فهم أيضاً الدليل على وجود الله. إن النظر الصحيح يثبت أن هذا القول مجرد افتراض وأن هذا الافتراض لن يؤدي إلى الحقيقة، فهو مجرد هروب من مجابهة المشكل مجابهة حقيقية.

إذن ما العمل؟

ليس هناك إلا طريق واحد. وهو الاستسلام! نعم الاستسلام!

يجب أن نسلم أن الله موجود وأنه خالق الكون وأنه أرسل رسلاً وأنه يفعل ما يريد.

لماذا نسلم بذلك؟

لأن عقولنا قاصرة عن إدراك الحقيقة. قبل قليل من السنين لم يكن أي إنسان يتصور أن بمقدوره أن يصنع طيارة يطير بها إلى السماء ولم يكن من الممكن التصديق بحدوثها لأنها كانت في عالم الغيب. أما اليوم فإننا لا يمكن أن ننكر ذلك لأنها أصبحت حقيقة ملموسة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قصر (اقرأ: قصور) العقل الإنساني.

والغريب في الأمر أن الإنسان الضعيف القاصر التفكير يريد أن يثبت بعقله القاصر وجود خالقه الذي يوجد في عالم الغيب.

إذن لنستسلم. والاستسلام من طبيعة الإنسان بل من طبيعة الأشياء كلها ما عدا الله.

إننا لن نخسر شيئاً إذا سلمنا أن الله موجود وأن رسله هي رسل حقيقية، لأن هؤلاء لا يطلبون منا إلا ما فيه صلاحنا. هذا شيء لا شك فيه.

لنكن مؤمنين رغم شكوكنا، لأن الشكوك لن تجدي نفعاً.

لنقل بكلمة بسيطة إن الله موجود وأنه هو خالقنا. أما من هو وكيف هو ومن يثبت وجوده، فهذا أمر نتركه، لأنه فوق تصوراتنا وأعلى من عقولنا.

على أن التأمل في ما تنبئ به الرسل وما كانوا عليه أيام حياتهم خير دليل على أن الله موجود وأنه أرسلهم فعلاً.

على كل حال، إننا لن نخسر شيئاً إذا قلنا إن الله موجود ولو كان هذا القول هروباً أو نفاقاً لأنه إذا كان موجوداً حقيقة فسيكون هو المسؤول عن هذا الشك وعن هذا الهروب والنفاق لأنه لم يرنا نفسه بصفة نطمئن إليها. وإذا لم يكن موجوداً حقيقة فإننا لن نوصف إلا بكوننا أخطأنا التقدير والتخمين. وكم هي الحالات التي يخطىء فيها الإنسان.

نعم، لكل أن يختار الطريق الذي يريد، قد تختار الإلحاد وقد تختار الشك دائماً. وقد تختار ما تريد. أما أنا فإني أختار الإيمان. ولو كان اختياري هذا نوعاً من الاستسلام والتسليم فما أنا إلا بشر ذو عقل قاصر.

على أن المسألة هي في الحقيقة اختيار بين افتراضين، لأنه إذا كان القول بأن المادة هي أصل كل شيء لا يعدو أن يكون افتراضاً، ولأنه إذا كان القول بأن الله هو الخالق قول (كذا) لا يقوم عليه دليل منطقي عقلي يقبله العقل، فهو إذن افتراض أو أشبه بافتراض، فإن أمامنا ـ على هذا ـ أن نختار بين الافتراض الأول والافتراض الثاني.

ولما كان الأمر أمر اختيار، فليختر كل منا ما يريد. أما أنا فقد اخترت.

ولكن يجب أن لا ننسى أن الذي يختار ورقة «اليانصيب» لن يكون هو الرابح دائماً.

أنا أؤمن بالله لأن الإيمان والتسليم أقرب طريق إلى حل المشكلة. وإذا كان هذا الحل غير صحيح في نظر البعض فإنه صحيح في نظري لأنه ليس هناك في هذا العالم من يثبت لي خطأ اختياري إلا بعد أن يثبت لي صحة اختياره. وأنا أعتقد أن أياً كان لن يستطيع أن يثبت لي (أن) كون المادة هي الخالقة أو أن الكون موجود أبد الدهر.

التوقيع وتحته ما يلي: انتهيت من كتابته في الساعة الثامنة من اليوم نفسه، ٢ ـ ١ ـ ١٩٥٩.

(**ملاحظة**: واضح أن أصداء رهان باسكال وشك ديكارت يتردد صداهما هنا. وكان صاحبنا حين كتب هذا النص طالباً في السنة الأولى فلسفة بالرباط وكان الأستاذ الرئيسي هو المرحوم الدكتور محمد عزيز الحبابي).

٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩

واقع الشباب المغربي

تصميم الموضوع

١ ـ واقع الشباب المغربي هو واقع الأمة المغربية نفسها.

٢ ـ الحياة الاجتماعية في المغرب حياة ناقصة متفككة.

ـ عدم وجود انسجام تام بين الفئات.

ـ بروز التنافر بين مختلف عناصر الشعب.

ـ دور الجهل في الحياة الاجتماعية المغربية.

ـ دور الفقر في الحياة الاجتماعية المغربية.

٣ ـ اضطراب الحياة الاجتماعية ينتج الأنانية الفردية والقبلية.

ـ مظاهر الأنانية الفردية، السعي وراء المصالح الشخصية، انعدام المثل القومية الوطنية، انحلال الأفراد من المفاهيم الخلقية والدينية.

٤ ـ موقف الشباب إزاء هذا الانحلال الاجتماعي.

ـ الشباب المغربي جله غير مثقف (خطر جهل الشباب، اضطرابه، تفكك الروابط الأخلاقية بين الشباب).

ـ في المغرب فئة من الشباب نصف المثقفين (غرور هذه الفئة، خطرها في الحياة الاجتماعية والوطنية، سعيها وراء المنافع الذاتية، جريها وراء الأجور المرتفعة بأية وسيلة ولو غير مشروعة، خطر هذا على الكيان الاجتماعي).

في البيضاء 3 يناير ١٩٥٩

واقع الشباب المغربي

تصميم الموضوع

١ - واقع الشباب المغربي هو واقع الأمة المغربية نفسها
٢ - الحياة الاجتماعية في المغرب حياة ناقصة متفككة.
أ - عدم وجود انسجام تام بين الفئات
ب - بروز التنافر بين مختلف عناصر الشعب
ج - دور الجهل في الحياة الاجتماعية المغربية
د - دور الفقر " " " " "
٣ - اضطراب الحياة الاجتماعية ينتج الأنانية الفردية والقبلية
أ - مظاهر الأنانية الفردية (السعي وراء المصالح الشخصية
انعدام المثل القومية الوطنية - انحلال الأفراد من
المفاهيم الخلقية والدينية.
٤ - موقف الشباب إزاء هذا الانحلال الاجتماعي
ا - الشباب المغربي جله غير مثقف (خطر جهل الشباب
اضطرابه - تفكك الروابط الأخلاقية بين الشباب
٢ - في المغرب فئة من الشباب نصف المثقف (غروره وحدة
النفسية - خطرها في الحياة الاجتماعية والوطنية - سعيه
وراء المنافع الذاتية - جريها وراء الأمور المرتفعة
بأية وسيلة ولو غير مشروعة - خطرها على الكيان الاجتماعي

٥ ـ اختلاف ثقافة المثقفين والشبان المثقفين (دور الثقافة في حياة الفرد. دورها في حياة الجماعة. أسباب اختلاف الثقافة: العهد الاستعماري. نتائج اختلاف الثقافة أيام الاستقلال).

٦ ـ موقف الشباب من زعمائه:

ـ عدم نضوج الزعماء المغاربة. خلو نشاطهم الحزبي والاجتماعي من المفاهيم الفكرية الثابتة.

ـ نظراً لذلك كان الصراع غير واضح.

ـ فقدان الشباب ثقته في قواد الحركة الوطنية.

٧ ـ أسباب فقدان الثقة:

ـ من صفات الشباب القوة والاندفاع وعدم وجود مفاهيم فكرية منطقية معقولة تستطيع استغلال قوة الشباب واندفاعه خطر على الشباب نفسه وعلى المجتمع أيضاً.

ـ من صفات الشباب ميله إلى الثورة والانقلاب. عدم وجود وسائل لاستغلال النشاط الثوري الانقلابي عند الشباب يسبب انتكاس الشباب ووقوفه موقف المتفرج.

ـ انهيار النشاط الاجتماعي والثقافي عند الشباب نتيجة من نتائج ذلك.

٨ ـ هل الشباب المغربي جدير باسم الشباب؟

ـ الشباب حركة ونشاط.

ـ الحركة = القوة والاندفاع.

ـ القوة والاندفاع = ثورة وانقلاب.

ـ النشاط = التعبير عن الطاقة الكامنة. أي التعبير عن القوة والاندفاع.

ـ نشاط الشباب نشاط ثوري انقلابي.

٩ ـ معنى ثورة الشباب:

ـ الشباب يطمح إلى المستقبل، والمستقبل من بناء سواعد الشباب.

ـ المستقبل يجب أن يكون أحسن من الماضي والحاضر.

ـ تغير أحوال المجتمع من واقع الحاضر إلى آمال المستقبل لا يتم بالطريق الطبيعي إلا بعد موت أجيال وفناء أجيال وحصوله رغم ذلك مشكوك فيه، كما

ـ ثورة الشباب تتجلى في رفض الحاضر رفضاً كلياً. الحاضر قديم والمستقبل جديد. والحاضر والمستقبل، أي القديم والجديد، لا يلتقيان إلا في **ذاكرة الشباب** (مسطر عليها في الأصل بخط أحمر).

ـ ليس معنى الثورة رفض جميع القيم الخلقية والدينية، إذ إن هذا انتكاسة إلى الوراء، بل معناها تجديدها وبعث الصالح منها والقضاء على الطالح منها.

ـ ثورة الشباب إذن ثورة إيجابية بالإطلاق إذ هي إيجاد الأحسن، وهي سلبية نسبياً فقط، سلبية فيما يتعلق بمحو الفاسد من النظم والمعتقدات والعادات.

١٠ ـ معنى انقلابية الشباب.

ـ الشباب انقلابي بطبعه، لأنه ينقلب فجأة على أفكار صباه ومراهقته ويتجه إلى أفكار أحسن هي أفكار الرجولة الحية.

ـ انقلابية الشباب تتجلى في رفضه التسليم بما كان موجوداً من النظم والأفكار والعادات.

ـ انقلابية الشباب تتجلى في شكه الدائم في وجه مجتمعه.

ـ الشباب يسعى في تكييف نفسه مع المجتمع... وهذا التكييف صراع بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون.

ـ صراع الشباب في (؟) صراع دائم مستمر.

١١ ـ لا بد من قيادة للشباب.

ـ هدف هذه القيادة تكييف ذلك الصراع وجعله يتمشى مع متطلبات الإصلاح.

ـ هدف هذه القيادة استغلال انقلابية الشباب وثورته لصالح الأمة والمجتمع.

ـ من واجبات هذه القيادة إحياء نشاط الشباب كلما ظهر عليه الوهن نتيجة لإخفاقها (اقرأ: لإخفاقه) في التكييف والاستقلال.

١٢ ـ ليس في المغرب قادة للشباب حقيقيون.

١٣ ـ ليس في الشعب المغربي ظاهرة واضحة لفكرة الثورة والانقلاب بالمعنى المتقدم. (كان ذلك موجوداً أيام الاستعمار).

١٤ ـ إحياء الشباب وتجديد نشاطه يتطلب قيادة من طبيعتها الفكرة الثورية والانقلابية حتى تغذي ظاهرتي الثورة والانقلاب في روح الشباب.

١٥ ـ من أهم الأسس التي يجب أن تقوم عليها تلك القيادة اتباع مفاهيم فكرية معينة. وتعيين هذه المفاهيم من عمل القيادة إذ هي التي ترى بعين واسعة أين توجد مصالح الأمة والشعب.

١٦ ـ تعلق الشباب بمفاهيم فكرية أو دينية شيء ضروري لأن الشباب ينشغل بها وينسى حاجاته الآنية والصعوبات التي يخترقها (اقرأ: تعترضه).

١٧ ـ ليس من الصعب أن يدرك الشباب الجاهل مثل هذه المفاهيم لأن ظاهرة الثورة والانقلاب عنده تميل إلى التبعية والتقليد.

١٨ ـ الشباب المغربي في حاجة إلى روح تنفخ فيه من روحها. هذه هي الحقيقة الكبرى.

(**ملاحظة**: كتب هذا النص/ المشروع ـ كما هو منصوص عليه أعلاه ـ في ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ أي قبل «انتفاضة ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩» ببضعة أسابيع فقط. ومعلوم أن هذه الانتفاضة قام بها «الشباب» أساساً داخل حزب الحركة الوطنية، حزب الاستقلال، احتجاجاً على أسلوب عمل العناصر «غير الشابة» في قيادته. وهذا موضوع سيجد مكانه في الجزء الخاص بالتجربة السياسية لصاحب هذه الحفريات. يمكن أن يلاحظ القارىء أيضاً غياب مصطلح «إيديولوجيا» في ذلك الوقت في الخطاب العربي الشيء الذي استعاض عنه النص بكلمات أخرى: مفاهيم، أفكار...).

الدار البيضاء ٣ أيار/ مايو ١٩٦١

اعتراف

يجب علي قبل البدء في كتابة هذه المذكرة أن أعترف بادىء ذي بدء بأني لا أفكر في كتابة المذكرات إلا في أحوال نفسية خاصة.. إلا عندما أكون في أزمة أو شبه أزمة نفسية.

لقد كتبت آخر مذكرة كما يبدو من هذا الدفتر في ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ أي منذ ٢٩ شهراً.. نعم تسعة وعشرون شهراً مرت كلها بدون أن أكتب أية مذكرة، مع أنها مدة طويلة.

ولكن كما قلت سابقاً لا أفكر في كتابة المذكرات إلا عندما أعاني حالة نفسية هي أشبه بأزمة. وليس معنى هذا أني لم أعان طوال هذه المدة مثل هذه الحالة النفسية الشبيهة بالأزمة، بل لقد عانيت مثل هذه الحالات مراراً... ولكن لم تكن تلك الحالات مما يتصل بي شخصياً، أي لم تكن تتناول حياتي الداخلية الخاصة وإنما كانت لها ارتباطات بالمجتمع وبمستقبل البلاد.

أما حينما تعتريني حالة نفسية خاصة، كتلك التي تنشأ عن مشكلة المستقبل أو الزواج فإني أجدني مدفوعاً إلى كتابة مذكرات.. ولعلها وسيلة للتنفيس (...).

أبحث عن نصفي الآخر

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها أنتقل إلى موضوع هذه المذكرة: إنه البحث عن الشريك: البحث عن النصف الآخر.. البحث عن الزوجة..

ثانياً: قرب حصولي على الليسانس.

ثالثاً: تحسن مطرد في مستوى عائلتي من الناحية المادية.

إنها دوافع معقولة.

ولكن ما هي ومن هي الزوجة التي أبحث عنها. إنها فتاة يجب أن تتوفر فيها شروط (...) إنها شروط قلما تتوفر في فتاة.. ولضمان توفرها يجب علي أن أتجنب حب أية فتاة قبل البحث في استكمالها لهذه الشروط. إذن يجب أن لا أرتبط مع أية فتاة قبل توفرها على هذه الشروط.

فلسفة.. ولكن

لو قدر لي أن أكون فيلسوفاً ذا مذهب خاص به ولو أني لا أتخذ لي شعاراً العبارة التالية المشهورة: «احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة»، لولا هذا وذاك لكان مذهبي الفلسفي ولكانت فلسفتي كلها تنحصر في المرأة.. وبعبارة أوضح في هذا «الشيء» الذي يربط الإنسان بالمرأة، خاصة الشاب الأعزب بالفتاة. هذا الذي يربط بينهما ربطاً، ويجعل أحدهما يغار على الآخر غيرة قد تكون عمياء أو تتعدى العمى، هذه القوة السرية الخفية التي تجعل من الشاب دوماً «نزوعاً» إلى الفتاة، نزوعاً مستمراً إلى رؤيتها، إلى الحديث معها، إلى تخيلها في مواقف معه، مواقف بريئة، ولكنها تعبر عما نسميه ويسميه الناس «الحب»، ولكنه ليس حباً عادياً. ولكنه شيء آخر أسمى من الحب، أو أنه الحب على حقيقته قبل أن يشوهه العشاق المبتذلون، وقبل أن يمسخه المغنون في أغانيهم المصطنعة اصطناعاً.

إن ذلك كان سيكون مذهبي في الفلسفة لو كان لي مذهب، وكان سيكون أساس فلسفتي كلها لو كانت لي فلسفة لو لم أتخذ تلك العبارة: «احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة» شعاراً لي.

إنني لا أستطيع تفسير هذه القوة، هذه الطاقة، هذه الأحاسيس المتراكمة الممتزجة بعضها مع بعض، هذه الكمية من الشعور الذي يكون نزوعاً كلياً.. نحو الفتاة، نحو المرأة.

اليوم نفسه

ولكن... ما هي فتاة أحلامي؟

إنه قد يبدو من السخافة الحديث عن فتاة الأحلام لأن وصفها بكونها فتاة أحلام يجعلها مجرد خيال وأحلام لا تتحقق.. ولكني سأعمل جهد المستطاع لأكون موضوعياً في تحديد هذه الفتاة: فتاة الأحلام. لن أكون مثالياً، ولا خيالياً، فهذا ليس من طبعي. ولكن سأكون موضوعياً إلى حد كبير (...).

التوقيع

الاحد (28 مايو)

«فلسفة».. ولكن.

لقد قدّر لي أن أكون أكبر فيلسوفاً ذا مذهب
به، ولو أنّي لا أتخذ لي شعاراً العبارة المشهورة
«احذر الشجرة التي تخفي عنك الغابة»... سوى
ذلك، لكان مذهبي الفلسفي، ولكانت عند
كلها تتلخص في المرأة.. وبعبارة أوضح في «هذا
الشيء» الذي يربط الانسان بالمرأة، فالرجل
الأعزب بالفتاة. هذا الذي يربط بينهما ربما
ويجعل أحدهما يشعر مع الآخر غيرة ممن يكلمها
و«تتعدى اللمس» في هذه القوة السرية الخفية
تجعل من الشاب «دون جوان» إلى الفتاة
تزوجها مستمعاً إلى «روميو» إلى الحديث مع
إلى تخيلها في مواقف معه، مواقف بريئة، و
تعبيراً نسميه ويسميه الناس «الحب»؟
ليس حباً كما ديا، ولكنه شيء
أسمى منه الحب، ان الحب مع [illegible]
قبل أن يشوهه العشاق المبتذلون، و
أن يسخفه المغنون في أغانيهم الشعبية

في حاجة إليه...

نعم أنا في حاجة إلى الحب. في حاجة ماسة إليه. إنني أحس أحياناً أن كل قطعة من جسمي تبحث عن قطعة أخرى في جسم فتاتي.. فتاة حبي. وأشعر أن قلبي وروحي وعقلي في حاجة إلى قلب وروح وعقل يركن إليه ويقاسمه الشعور والإحساس والتفكير...

إن حياتي أصبحت مشروعاً.. أصبحت نزوعاً..

لقد كنت أعتقد أن الإنسان يستطيع الحياة بدون حب، حب جنسي.. ولكن هذه الأيام أشعر بأني بدون حب كالأحمق..

إن شيئاً ينقصني.. نعم ينقصني.. وأحس بأن هذا الشيء يكون نصفي الآخر.. نصفي الضائع.. النصف الذي أبحث عنه.. في الطرقات، في الشوارع، في الأندية، في السينما، في كل مكان.

إنني لا أستطيع أن أمر أمام فتاة بدون أن أنظر إليها، وكأني أبحث عن فتاة أعرفها من قبل.. كأن فتاتي، كأن نصفي ضائع، وأني باحث عنه هنا وهناك.. في كل مكان.

إني دائماً في توقان.. في انعطاف.. إني مفتوح الذراعين، مفتوح القلب، مفتوح الروح مفتوح الجسم..

إنني كجهاز استقبال.. مستعد لاستقبال نصفي الآخر الضائع.. الذي أبحث عنه في كل مكان. إنني كقطعة مغناطيس.. فيّ من قوة الجذب ما يجعلني أنا منجذباً إلى خارج نفسي، إلى شيء آخر، إلى فتاة، إلى حب.. إنني أعيش خارج نفسي، خارج أناي.. أعيش من أجلها ولأجلها، لأجل تلك الفتاة التي لا أعرفها.. إذ لو أعرفها لحلت المشكلة. إذن لوجدت نصفي الضائع.

ولكن كيف سيكون هذا النصف.. الضائع مني؟.. أسيكون قطعة مني

جسماً وروحاً وطبعاً.. أم يكون مخالفاً.. فيكون التنافر والتضاد..

أنا لا أحب فلانة حباً جنسياً، هذا صحيح.. ولا يغريني في الزواج منها لا سلوكها لأني لا أعرفه بالضبط، ولا عائلتها، فهي عائق أكثر من مرغب.. ولكن أشعر برغبة، حادة أحياناً، في اكتشافها.. اكتشاف هذه المخلوقة التي أراها كل يوم.. ولست أدري ماذا أريد منها.. إنه ليس الحب.. إنه ليس الإعجاب ولكني لا أعرف لماذا أنا أفكر فيها.. قد يكون ذلك من أجل اكتشاف ما إذا كانت تحبني أم لا..

وحتى إذا اكتشفت يقيناً أنها تحبني فهل هذا سيحملني على الزواج منها؟ لا أعتقد.. نعم إني أناني..

من الناحية الموضوعية إنها لا تلبي الشروط التي أضعها كأساس لنجاح الزواج.

ومن الناحية العاطفية لا أشعر بأي حب جنسي إزاءها.. بل إني كلما تصورتها زوجة تضاجعني إلا وشعرت بأنني بدأت أبتعد منها.. إذن ماذا يجعلني أفكر فيها؟

هل لأني لا أعرف غيرها؟ قد يكون...

ولعل هذا صحيح.. وقديماً قالوا: «كل له ليلاه.. ومن لم يجدها اتخذها من الخشب».

وهكذا أصبحت أتخذ من فلانة ليلاي. ولعل ذلك أفضل من الخشب.. حقاً هذا صحيح.. ولكن ما بعد هذا.. إني أريد اكتشافها.. لمعرفة ما في عقلها، في تفكيرها. لقد حملتها معي من مكان عملها إلى باب منزلها، وكان حديثنا سطحياً خارج الموضوع، موضوع الحب، وقد وجدتني في الأخير قد أحسنت التصرف.. ولكن ذلك لن يحل المشكلة..

هل أحملها غداً مثلاً إلى عين الذئاب.. بعد السادسة؟

إن هذا ممكن وممكن جداً..

نعم يمكن بكل سهولة آن أربط معها علاقات غرامية ولو مصطنعة، ولكن كل تصرف من جانبي نحوها إلا وسيكون في علم عائلتي وعائلتها. . . ومن ثم سيكون دلالة قاطعة على أني أنوي الزواج بها. .

وأنا لا أرغب في هذه النتيجة.

ماذا سأفعل؟

لست أدري.

وكل ما أدريه هو أني في حاجة إلى نصفي الثاني.

أين أنت أيها النصف: نصفي أنا الذي أبحث عنك في كل مكان وفي كل لحظة؟

التوقيع

(**ملاحظة**: تم الزواج بشريكة الحياة أم الأولاد في ٤ آب/ أغسطس ١٩٦٢).

حوار

أجراه مع المؤلف الأخوان: حسن نجمي عن جريدة **الاتحاد الاشتراكي** وعلي أنزولا عن مجلة **المجلة** الصادرة بلندن.

س ـ كيف فكرتم في البداية في كتابة سيرتكم الذاتية حفريات في الذاكرة؟ هل جاء ذلك نتيجة إحساس معين بضرورة كتابة هذه السيرة أم أن هناك اعتبارات أخرى، منها ما هو سياسي ومنها ما يتعلق بمشروعكم الثقافي؟

ج ـ لا أستطيع تحديد دافع خاص كان وراء كتابتي لهذه **الحفريات**. والشيء الذي أستطيع تأكيده هو أن كثيراً من الأصدقاء طلبوا مني مراراً ومنذ سنين كتابة نص عن طفولتي. وكان المرحوم باهي محمد يقول لي دائماً لا بد أن أجلس معك في خلوة لمدة أسابيع لأنتزع منك وقائع طفولتك. وأذكر أنه منذ حوالى ست سنوات بدأت أسود أوراقاً سجلت فيها ذكرياتي حول وقائع طفولتي، وكنت أفعل ذلك عندما لا أكون مشغولاً بالبحث في موضوع ما. وفي الأسابيع التي سبقت نشر هذه **الحفريات** طرأ دافع خاص لا علاقة له لا بالسياسة ولا بالثقافة هو الذي حملني على مراجعة تلك الأوراق وكتابة ما كتبت. إن نشر هذه الأوراق في الوقت الذي نشرت فيه يرجع أولاً وأخيراً إلى «الحاجة»، الحاجة التي ترتبط بتزايد متطلبات الأولاد، وكثير من الأصدقاء يعرفون حقيقة هذه الحاجة. إذن كان هناك دافع شخصي عائلي محض. ومع ذلك فيمكن أن يعطي بعض الناس لقرار نشر هذه «الحفريات» وتوقيت نشرها تأويلات أخرى تضفي عليها هذا المعنى أو ذاك. والواقع أن التاريخ تجري حوادثه في كثير من الأحوال على هذا الشكل: يقوم الإنسان بفعل ما ثم يأتي شخص آخر يقرأه على ضوء الظروف والملابسات المحيطة به فيعطيه معنى آخر. وأنا إذ أفهم هذا أؤكد أنه لم يدر بخلدي أي معنى من هذه المعاني التي يمكن أن تعطى

لهذا التوقيت. ولقد كان من الممكن أن يعطى لنشر هذه «الحفريات» معنى آخر لو أني اقتصرت على نشرها في جريدة **الشرق الأوسط** وحدها دون جريدة **الاتحاد الاشتراكي**. ولو اقتصرت على نشرها في هذه الأخيرة لما حصل المقصود الأولي من نشرها، وهو تغطية «حاجة» معينة. وأنا من عادتي أن لا ألجأ في مثل هذه الأمور لا إلى جريدتنا ولا إلى حزبنا، لا على سبيل التعويض أو المكافأة ولا على سبيل السلفة.

س ـ من خلال القراءة الأولى لنص «حفريات في الذاكرة» يكتشف القارىء أن الكاتب قد فكر مسبقاً في عرض حكاية سيرته الذاتية اعتماداً على تصور مسبق. فهو بهذا التصور يكتب عن «زمن اللاكتابة» أي زمن الطفولة، «في زمن الكتابة» والوعي. وبعبارة أخرى إن الكاتب يتكلم، من خلال وضعه كمفكر، عن زمن طفولته من خلال وعيه به كحاضر. لذا أعتقد أن النص في مثل هذه الحالة قد تسقط عنه السليقة والعفوية التي أشرت إليها في الاستهلال الذي قدمت به النص. نريد أن نعرف إلى أي حد كان الكاتب، صاحب الذات الواعية، موضوعياً ومحايداً في التأريخ لوقائع حياته الشخصية زمن الطفولة؟

ج ـ أما أن أكون محايداً وموضوعياً فهذا ما لا أستطيع تأكيده، لأن السيرة الذاتية تبقى ويجب أن تكون ذاتية في جميع الأحوال. والأهم من هذا بالنسبة لي هو الصدق. وأعتقد أنني لم أكتب عن حياتي الشخصية وحدها بل عن حياة جيل بكامله، الجيل الذي أنا فرد منه وعاش معي وعشت معه حياة مشتركة، سواء في مدينة فجيج، في الشارع أو في المسيد أو المدرسة أو في الدار البيضاء ودمشق بعد ذلك. فهذا الجيل، وأقصد أصدقائي وأقاربي وزملائي في المدرسة، وعددهم كثير، كلهم شهود على مدى صدق جميع ما رويته من وقائع.

أما بالنسبة لـ «التصور» الذي صدرت عنه في كتابة ما كتبت، وكذلك الشأن بالنسبة لـ «منهج الكتابة»، فإن الجواب عن هاتين المسألتين يتطلب مني الآن كتابة فصل آخر من **سيرتي الذاتية** لم يحن الوقت بعد للخوض فيه لأنه يتعلق بالمسار الثقافي الذي أنوي أن أخصص له جزءاً مستقلاً. ومع ذلك فلا مانع من الإدلاء بالتوضيحات التالية:

أستطيع أن أؤكد أني لم أصدر عن «تصور» مسبق لا بخصوص بناء الموضوع ولا بخصوص المنهج، وإنما صدرت عن عفوية وسليقة، أي بدون تكلف، دون أن أحمل نفسي حملاً على الخوض في موضوع معين أو اتباع أسلوب معين. ولكن

يشكل جزءاً من شخصية الإنسان. فصاحب «الحفريات»، موضوع الحديث، إنسان له شخصية يدخل «الثقافي» و «الاجتماعي» و «الوطني» في تركيبها. وإذا هو تكلم بعفوية وسليقة فإنه لا يستطيع أن يمنع أحد هذه الجوانب من أداء دوره في الكتابة. هناك إذن تصور يفرض نفسه على الكاتب هو ذلك الذي يفرضه الواقع، فينعكس في الكتابة بهذه الصورة أو تلك. ومن هنا جاءت «الحفريات» حفريات في الوعي الفردي (وفي الوعي الجماعي أيضاً نظراً لتداخل الذاكرة الشخصية مع الذاكرة الجماعية في حياة صاحبنا)، وحفريات في الواقع السوسيولوجي والأنتروبولوجي الذي كان يشكل «المحيط» الذي درج فيه الطفل وتكون في طياته وعيه وأناه، وأيضاً: حفريات في الذاكرة الوطنية لهذا الأخير لأن زمن طفولته ومراهقته كان زمن «الوطنية». هذه الجوانب الثلاثة قد تداخلت في الذاكرة تداخلاً يفرض نفسه على العفوية والسليقة. والحق أنه ليست هناك سليقة مطلقة وإلا فهي الفراغ أو «الهذيان». هذا من الناحية المبدئية. وكتطبيق لهذا المنطق وجدت نفسي حين الشروع في الكتابة، وليس قبل ذلك، أمارس نوعاً من الكتابة بكل عفوية وسليقة، من جنس ذلك الذي خطه هيغل الفيلسوف الألماني المعروف في كتابه الشهير **فينومينولوجيا الروح**، مع فارق كبير طبعاً. ذلك لأن هيغل «سرد» في كتابه المذكور، على طريقته الخاصة كفيلسوف تجريدي عملاق، ما يمكن تشبيهه بـ «السيرة الذاتية» للوعي البشري عبر العصور. أما صاحب **حفريات في الذاكرة** فقد سرد، بطريقته الخاصة، ما يمكن التعبير عنه بـ «السيرة الذاتية» لتطور وعيه كفرد ونمو أناه، من «اللحظة» الأولى في مسيرة تحقيق «الانفصال» عن الأم أولاً، إلى «لحظة» الاندماج مع الأقران من الأطفال، إلى «لحظة» الاتصال مع العالم الخارجي ـ أعني خارج مسقط الرأس ـ على مستوى الوهم أولاً بواسطة «الدبيش» ثم على المستوى الواقعي بالسفر إلى بوعرفة ثم وجدة ثم الدار البيضاء ودمشق، وما تخلل ذلك كله من أحداث تم انتقاؤها لكونها تشكل معالم رئيسية في هذا المسار، مسار تطور الوعي وتشكل الأنا... إلى أن بزغ «فجر الاستقلال»، بالنسبة لصاحب «الحفريات» بصورة متزامنة مع «فجر الاستقلال» بالنسبة للوطن. كان المنطلق هو تلك «الدفعة» التي تلقاها من الأم، وكانت النهاية ـ نهاية مرحلة الطفولة وتشكل الوعي واتجاهه نحو الاستقلال ـ هي مقابلته مع الشهيد المهدي والتحاقه بجريدة **العلم**.

والذي أقدمه الآن كقراءة ممكنة، وأنا شخصياً أعتقد أنها القراءة الأقرب إلى الحقيقة والواقع. وقد سررت سروراً بالغاً عندما قرأت في الاتحاد الاشتراكي مقالة (بعنوان: «حفريات في الذاكرة».. في حلقات)، لشخص متمكن في مجال الكتابة والفهم، لم تسبق لي به معرفة ولا أعرف الآن من هو ولا أين هو، أقول سررت سروراً بالغاً عندما وجدت أن صاحب هذا المقال قد فهم تماماً ما فعلته، ولا شك أنه ذو ثقافة فلسفية ممتازة. أما عن المنهج فأعتقد أن لكل من يتصدى لكتابة سيرته الشخصية منهجاً خاصاً، هو نفسه جزء من السيرة الذاتية. إن المنهج على العموم، بما في ذلك مناهج العلوم، ليس لائحة لخطوات يستحضرها الباحث أو الكاتب قبل الشروع في العمل ليتقيد بها بعد ذلك خطوة خطوة. إن العكس هو الصحيح. فالباحث في المناهج هو الذي يستخلص من الممارسة العلمية، أعني أعمال العلماء في المختبرات وغيرها، الخطوات المنهجية التي ينطوي عليها عملهم. وإذن فالمنهج كقواعد هو شيء يأتي بعد الممارسة وليس قبلها، تماماً مثلما أن قواعد النحو تستخلص من اللغة التي يمارسها أهلها. فقواعد النحو في لغة معينة لاحقة للممارسة اللغوية في تلك اللغة وليست سابقة لها.

س ـ الواقعة التي أشرت إليها من قبل بوصفها منطلق تشكل وعي الطفل، وقعت عندما كان هذا الطفل يحبو كما ورد في «الحفريات»، وهناك من يتساءل: هل يمكن أن يتذكر الإنسان واقعة ترجع إلى هذا العمر المبكر، السنة الأولى أو الثانية؟

ج ـ أحب أن أميز هنا بين شيئين، **الأول** هو دور هذه الحادثة في عملية تطور الوعي الفردي للطفل موضوع «الحفريات». أما **الثاني** فيتعلق بإمكانية التذكر في هذه السن المبكرة وأيضاً بإمكانية الاحتفاظ بذكريات ترجع إلى هذه المرحلة المبكرة.

بالنسبة للأمر الأول يعتبر علماء النفس أن حادثة «الفطام» تقترن في الغالب بشعور الطفل، ربما لأول مرة، بأنه شيء وأن أمه شيء آخر. وإذا أضفنا إلى أن «الفطام» كثيراً ما يكون مقروناً بقرب مولد طفل جديد من جهة، وبشعور الطفل من جهة أخرى بأن أمه ليست له وحده إذ ينافسه عليها أبوه ـ هذا الشعور الذي يعبر عن نفسه في إلحاح الطفل في مثل هذه السن على النوم بجانب أمه على فراشها مع زوجها (أبيه) ـ إذا أضفنا هذه الأمور بعضها إلى بعض وربطناها بالفطام، الفطام عن ثدي الأم، وهي مرتبطة به زمنياً، أدركنا كيف أن الفطام بمعناه الواسع ذاك يسجل فعلاً نقطة البداية في شعور الطفل بالتغاير مع أمه، أي إحساسه بأن أمه غير وأنه غير، ومن هنا تبدأ لحظة تشكل الوعي والأنا وبالتالي الشخصية كلها. أما بالنسبة

للطفل الذي تتحدث عنه **حفريات الذاكرة** فلقد عاش وضعا خاصا يتمثل أساسا في كون فطامه تم بصورة متقطعة، وكان قابلاً للانعكاس من جهة، كما أن أباه كان «غائباً» تماماً وبالتالي فلم يكن أحد ينافسه على أمه من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة لم يكن هناك مولود جديد قط. وإذن فحادثة «الفطام» لا تشكل أية بداية بالنسبة لتاريخ الوعي عند صاحبنا. ومن هنا أهمية الواقعة التي تتمثل في تلك «الدفعة» التي تلقاها من أمه عندما كانت تغزل، في الظروف التي شرحتها. فالمقصود من إيراد قصة هذه الدفعة هو هذه الدفعة نفسها بوصفها «الفطام الحقيقي» الذي تم قبل «الفطام الرسمي» كما ورد حرفياً في **الحفريات**.

هذا عن الجانب الأول، أما عن التساؤل عما إذا كان من الممكن تذكر حوادث جرت في مثل هذه السن المبكرة، فإن الجواب عنه يجب أن يلتمس في علم النفس وفي علم نفس الطفل وعلم النفس التربوي. أما «الاجتهادات» القائمة على مجرد التخمين وضرب أخماس في أسداس واتباع الهوى فشيء آخر. وأنا لم أكن لأذكر هذه الحادثة/ المنطلق لو لم أكن متأكداً من صحة وقوعها على صعيد الإمكان العلمي أولاً وعلى صعيد وفاء الذاكرة ثانياً. إن صاحب **الحفريات** ليس غريباً عن علم النفس، فهو يمارس عملية الحفر بكل مخزونه المعرفي: ومعلوم أن مادة الفلسفة في المغرب تشتمل على علم النفس وعلم الاجتماع ومناهج العلوم، إضافة إلى الميتافيزيقا والأخلاق وتاريخ الفلسفة، وهذه المواد ساهم صاحب **الحفريات** في تأليف كتاب فيها لتلامذة البكالوريا، وهو بعنوان **دروس الفلسفة لطلاب البكالوريا المغربية** وكان هو الذي كتب فصل **«التذكر والنسيان»** في ذلك الكتاب (ص: ٢٨٣ ـ ٣٠١) وفي الصفحة الأولى جدول حول تذكر الأطفال وزمنه منذ بلوغهم ١٥ شهراً. (انظر الطبعة الأخيرة أيلول/ سبتمبر ١٩٧١ دار النشر المغربية، الدار البيضاء). هذا إضافة إلى تدريس علم النفس والتحليل النفسي في الجامعة لسنوات، واهتماماته السابقة بعلم النفس التربوي. لقد كان من الطبيعي إذن أن يكون هو نفسه أول من يطرح هذا السؤال. وعلى كل حال فمن الأمور المقررة في علم النفس ـ بناء على تجارب عديدة ـ أن ذكريات الإنسان قد ترجع إلى السنة الثانية من عمره، وهذا أمر شائع، ولكن هناك من يرجع بذكرياته إلى السنة الأولى. ومع أن هذه الذكريات المبكرة يطويها النسيان في الغالب بعد مدة وجيزة فإن منها ما يبقى حياً مدى الحياة لكونها تكون موضوع تذكر من حين لآخر. وهذا ما حدث لصاحبنا. فالحادثة كانت صدمة بالنسبة له ومرتبطة بوضع معين هو عملية الغزل، فكان تكرار هذا الوضع يحيي

الذكرى في نفسه فتكرر تذكرها وأصبحت من «الذكريات الخالدة». نعم هناك حالات من التذكر الخاطىء، كما حدث لعالم النفس الكبير جان بياجي الذي يحكي في أحد كتبه أنه ظل لمدة طويلة يتذكر كيف أنه كان ضحية عملية اختطاف وعمره لا يزيد عن سنة، وأنه ظل يرى المشهد أمامه دائماً بكامل الوضوح: كان على كرسيه داخل السيارة مربوطاً إلى المقعد، فجاء غريب وفكه منه وخطفه. وبقي يحكي هذه الذكرى لأهله إلى أن اعترفت مربيته ذات يوم بأنها هي التي اختلقت الحادثة وحكتها له في مرحلة متقدمة من صباه، وحينئذ تبين أن ما كان يراه ويشاهده كحقيقة يتذكرها إن هو إلا تركيب خيالي سمع به فيما بعد. أما بالنسبة لصاحبنا فالظرف يختلف تماماً: إن طبيعة الحادثة ليست مما يحكيه الأهل لأبنائهم، بل هي حادثة لا يمكن أن تكون موضوع حكي أو اختلاق. هذا وهناك آليات وضوابط معروفة في علم النفس تساعد على التأكد من صحة الذكريات ومن تحديد تاريخها مما لا مجال للخوض فيه هنا.

س ـ لتشكيل النص وتأثيثه لم تنطلق من فراغ. لقد اطلعت بدون شك على نماذج من السيرة الذاتية، سواء تعلق الأمر بما هو موجود في التراث العربي الإسلامي أو ببعض النماذج في الفكر الغربي. ولا شك أيضاً أنك اطلعت على الجهد النظري الذي بذله عراب البحث النظري والنقد في مجال السيرة الذاتية الكاتب الفرنسي فيليب لوجون. سؤالي هو ألم تكن هذه النماذج حاضرة في ذهنك عندما كنت تباشر كتابة سيرتك الذاتية؟

ج ـ هناك نوع من الحضور لما نقرأ فيما نكتب: حضور لا نشعر به ولا نعيه. وكل إنسان عندما يكتب يفعل ذلك وهو يجر وراءه جميع ما قرأ، أعني مخزونه الثقافي بأجمعه. وهناك نوع آخر من الحضور هو الذي يعيه الكاتب عندما يكتب وهو يستشهد بكلام فلان أو يعترض على هذا الرأي أو ذاك أو ينخرط في نوع من أنواع التناص مع كاتب آخر. وبالنسبة لي أؤكد اليوم كما سبق أن أكدت بالأمس عندما سئلت عن مدى حضور فكر المستشرقين فيما كتبت، أؤكد أنني أبذل كل جهدي، عندما أشرع في التفكير والكتابة في موضوع ما، لأنسى جميع ما كتب في الموضوع. فأنا لا أدخل في حوار أو نقاش أو في عملية اقتباس أو تناص مع أي كاتب إلا إذا قررت ذلك وأردته وكان لي هدف من وراء ذلك. إن ما فعله فيليب لوجون في مشروعه الأول هو أنه حاول أن يصنف النصوص الخاصة بالسيرة الذاتية وأن يستخرج، من خلال استقراءات ومقارنات، قواعد أو ضوابط تكون بمثابة

المفاتيح التي يتعامل بها ناقد القول الادبي مع هذا النوع من النصوص. ولقد اكتشف هو نفسه أن «تأطير» نصوص السيرة الذاتية في قوالب معينة شيء ينطوي على مغامرة كبيرة قد لا تسلم من أخطاء. ومهما يكن فهذا الرجل تحرك في مجال النقد الأدبي وليس هو المجال الذي تحركت فيه أنا. لقد تحركت كما شرحت ذلك من قبل في المجال الثقافي الذي أنتمي إليه في عالم التخصص، أعني مجال الفلسفة.

على أنني اخترت اسماً لما كتبت يختلف عن الأسماء الرائجة تجنباً لكل التباس. لقد قمت بـ **حفريات في الذاكرة** وشرحت ما كنت أقصده بذلك. فالأمر يتعلق لا بمجرد سرد وحكي وإطلاق العنان لـ «ثرثرة الذات» ـ حسب تعبير بعضهم ـ ولا بمجرد إطلاق العنان ـ إلى حد ما ـ للذاكرة لكي «تتقيأ» ما فيها، كلا. لقد قلت إن عملي أشبه ما يكون بعمل عالم الآثار الذي ينقب ويحفر ويعثر على قطع أثرية يدرسها ويشيد انطلاقاً منها موضوعه الذي قد يكون قلعة أو قبراً أو تاريخ حضارة بأكملها. هناك ذكريات حقيقية وقعت في سياق حياتي تعكس وجوهاً حقيقية من سياق الحياة التي عشتها أنا وجيلي. وهناك أيضاً تأملات وإعطاء معنى سيكولوجي أو انتروبولوجي أو سياسي لهذه الذكرى أو تلك.

هناك اعتراض تقليدي في علم النفس يوجه إلى هذا النوع من التذكر المصحوب بالاستبطان. فلقد قيل في هذا الصدد إن الإنسان لا يستطيع أن يكون في آن واحد بصدد معاناة تجربة وفي نفس الوقت يقوم بتحليلها وتفسيرها، تماماً كما لا يمكن للشخص أن «يرى نفسه يمشي في الشارع وهو يطل من النافذة»، أي لا يمكن أن يكون في الوقت نفسه مشاهِداً (بالكسر) ومشاهَداً (بالفتح). وهذا صحيح ولكن موقف صاحب **حفريات في الذاكرة** يختلف عن ذلك تماماً: إن الطفل مر في الشارع فعلاً ولعب فيه الخ... ولكنه لم يبدأ في الإطلال من النافذة على الشارع وما فيه إلا بعد أن صار إلى ما صار إليه صاحب الحفريات وهو يكتب. فالمسألة هنا ليست مسألة استبطان ولا مجرد تذكر، بل الأمر يتعلق بـ «الحفر» في الذاكرة بطريقة خاصة.

س ـ لدي ملاحظة تخص مشروعك الفكري يشترك فيها معي كثير ممن اهتموا بهذا المشروع. وهذه الملاحظة تتلخص في كون مشروعك الفكري هذا يتضمن هو نفسه شذرات عديدة من سيرتك الذاتية وحياتك اليومية، إذ هناك من الأمثلة التي تختارها والاستشهادات التي توردها ما يمكن إدراجه في باب السيرة الذاتية. فهل يمكن القول إنك كتبت جزءاً من سيرتك الذاتية في ثنايا مشروعك الفكري وذلك

قبل أن تقوم بكتابتها بالفعل، وهل تقيم نوعاً من العلاقة المنظمة والواعية بين الذاتي والموضوعي في كتاباتك ككل؟

ج ـ أعتقد أنه لا بد لكل كاتب من أن تنعكس في كتاباته بعض جوانب حياته، خصوصاً إذا كان مسكوناً بهاجس تربوي يدفعه إلى توضيح الأفكار بضرب الأمثلة واختيار الشواهد، وفي الغالب ما يكون ذلك من المحيط الحضاري الذي ينتمي إليه الكاتب. وقد سبق لي أن وعيت بهذا مرتين على الأقل عندما كنت بصدد كتابة قسم من كتابي **نقد العقل العربي**. فعندما كنت أتحدث عن حياة العرب في الجاهلية استحضرت البيئة الصحراوية التي عشت فيها، وكان هناك في ذهني نوع من «التناص» ـ إن صح القول ـ بين بيئة عرب الجاهلية التي كنت أكتب عنها أو حولها وبين البيئة الصحراوية التي عشتها في مسقط رأسي فجيج. وحصل لي مرة أخرى هذا النوع من «التناص» بين بيئتين متماثلتين، وبصورة أقوى هذه المرة، وذلك عندما كنت بصدد الحديث عن مكة عند ظهور الإسلام في كتابي **العقل السياسي العربي**. إن توزع القبائل في مكة كمركز وتوزعها خارجها كمحيط (قريش البطاح وقريش الظواهر) كان يشكل بالنسبة إلي بنية تدخل في علاقة تناص بنيوي متين مع بنية مدينة فجيج بقصورها، بمركزها ومحيطها. أضف إلى ذلك القدرة على تتبع شجرات الأنساب وتداخلها لدى القبائل العربية، الشيء الذي له ما يماثله في قبائل فجيج، بل وفي كل مجتمع قبلي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فـ **«حفريات في الذاكرة»** كانت تستهدف كما أشرت إلى ذلك قبل، ليس فقط التأريخ لتطور وعي صاحبنا وتشكل أناه، بل كانت ترمي أيضاً إلى التعريف بالبيئة الاجتماعية والطبيعية والسياسية والثقافية التي كانت تشكل المجال الحيوي للطفل صاحب الوعي المؤرخ له. ولقد قصدت قصداً الوقوف عند القادة الوطنيين الذين قادوا جيلي والجيل السابق له في رحاب العمل الوطني. بل يمكن أن أقول الآن إن ما كتبته عن مسقط رأسي فجيج قد جعل كثيراً من المغاربة يكتشفون أنهم لا يعرفون المغرب. لقد قال لي أحد الأصدقاء: «كنت أسمع بفجيج ولكنني لم أكن أتصور أنها كما تعرفت عليها من خلال ما كتبت». فأجبته قائلاً: «وهل تعرف ورزازات، وتارودانت، وتافيلالت، وتادلة، وأجدير، وسبتة، وتطوان؟ بل هل تعرف سلا والرباط وفاس ومراكش؟»

كثر الحديث اليوم عن ما يسمى «الجهة» وأعتقد أن «الجهة» هذه ستبقى مجرد مصطلح جغرافي وفضاء للكلام «الانتخابي»، إذا لم يعط لها بعدها التاريخي الحقيقي.

المغرب إلا إذا قمنا بهذا النوع من «**حفريات في الذاكرة**»: ذاكرة مدن «المركز» وذاكرة مدن وقرى «الأطراف»، أعني ذاكرة أهلها ورجالاتها وليس فقط ذاكرة آثارها ومآثرها.. إن الكثير منا لا يعرف مثلاً عن محمد بن عبد الكريم الخطابي إلا أنه ذلك البطل الذي قاد الثورة في الريف ضد الاحتلال الاسباني. فتصور أن كاتباً ينتمي إلى مدينة «أجدير»، المدينة التي ينتمي إليها هذا البطل، كتب **حفريات في الذاكرة** ودار الحديث فيها عن محمد بن عبد الكريم الخطابي، على الأقل بمثل ما دار الحديث في «حفريات» صاحبنا على الحاج محمد فرج... إن القليلين من الشباب يعرفون أن بطل الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي كان فقيهاً وقاضياً قبل أن يتولى قيادة الثورة على المستعمرين... وقل مثل ذلك عن رجال الفكر والتحرير والوطنية في جميع جهات المغرب. إن المغرب اليوم في حاجة إلى ذاكرة وطنية متعددة الوجوه. و «الجهة» في المغرب ستبقى مجرد اصطلاح جغرافي إذا لم تستند على بعد تاريخي تحكيه ذكريات فردية تؤطرها الذاكرة الجماعية وتتعزز بها لحمة الوحدة الوطنية. ليس هذا وحسب، بل لقد اتصل بي أصدقاء من الجزائر وتونس وليبيا والسودان والسعودية وسورية... يقولون إن كثيراً مما كتبته عن فجيج ينطبق أيضاً على القرى والواحات التي عاشوا فيها. وإذن فللمسألة بعد آخر، بعد عربي يعكس وحدة الحضارة العربية الإسلامية من الخليج إلى المحيط.

س ـ هناك مستويان يشطران «مكتوبكم» عمودياً، المستوى الذاتي الذي يسرد وقائع مرتبطة بطفولة المؤلف، ومستوى تاريخي اجتماعي يؤسس لتاريخ وعادات منطقة أهل «فكيك»، وفي نفس الوقت يؤطر السيرة الذاتية بالنسبة لكم، فكيف يحقق هذان المستويان تكاملهما؟

ج ـ إن للحظة الكتابة منطقها الخاص يفرض نفسه على الكاتب. والتقديم الذي وضعته في مستهل **حفريات في الذاكرة** كتبته بعد أن انتهيت من هذه الأخيرة. وهذا ما يحصل في الغالب، فمقدمة الكتاب هي آخر ما يكتب. إن الكاتب يتأمل ما فعل ويحاول إعطاء تفسير من هذا النوع أو ذاك لما كتب. وفيما يتعلق بي شخصياً لا أتصور سيرة ذاتية خاصة لحياة فرد واحد، اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بروبانسون كروزوي، أو بـ «أسال» قصة حي بن يقظان. أنا فرد واحد من جيل، وكل فرد من أفراد هذا الجيل هو صورة للآخر: أناه الثانية. إن الصورة التي نشرتها جريدة **الاتحاد الاشتراكي** تعود إلى عام ١٩٤٧ وهي لتلامذة المدرسة التي درست فيها. عندما

أخذت هذه الصورة من أحد أصدقائي وبدأت أتأملها لم أستطع اكتشاف نفسي إلا بصعوبة لأن الجميع متشابهون والجمع متراص، وكذلك كانوا في الحياة العملية خلال طفولتهم. منهم من أصبح اليوم مهندساً أو طبيباً أو أستاذاً جامعياً أو مقاولاً أو قاضياً أو موظفاً كبيراً في جهاز الدولة أو تاجراً من كبار التجار. لقد عاش هؤلاء جميعاً التجربة نفسها التي عشتها، ولذلك فعندما كنت أكتب عن تجربتي، كنت أتكلم في نفس الوقت عن جيل بأكمله وعن مرحلة تاريخية بأكملها، عن مرحلة يمكن اعتبارها جسراً بين حياة القرون الوسطى وحياة القرن العشرين. ومن هذه الناحية كنت أحس أنني أتكلم بلسان الجميع. وهكذا فالجوانب الشخصية والاجتماعية والوطنية قد فرضت نفسها على الكاتب فرضاً.

س ـ ما هي المتعة الشخصية الذاتية التي أحسست بها أثناء كتابتك لسيرتك الذاتية؟

ج ـ لا أعتقد أن كلمة «متعة» مناسبة، على الأقل بالنسبة لتجربتي. فالأمر يتعلق بتجربة هي متعة وغير متعة في آن واحد. فاللحظات التي انسقت فيها مع الكتابة واستغرقت فيها استغراقاً أفقدني إحساسي بوجودي ووعيي بذاتي ككاتب يفكر ويكتب، هي تلك التي استطعت أن أستعيد فيها ذكريات معينة مصحوبة بالبطانة الوجدانية التي كانت لها يوم أن كانت حوادث واقعية. أن يعيش المرء ذكرى معينة ببطانتها الوجدانية أو بما يماثلها تقريباً شيء ممتع حقاً وإن كان ينطوي في بعض الأحيان على تحسر أو ما يشبهه. فالأمر يتعلق هنا بما يشبه «السفر إلى الماضي» في جو من نسيان الذات والخروج عن العالم.

س ـ في عرف السياسيين إن كتابة المذكرات لا تمليها فقط الرغبة في التأريخ لفترة معينة، وإنما للإعلان عن دخول مرحلة التقاعد. فماذا تعنيه بالنسبة لكم كتابة سيرتكم في هذه المرحلة من عمركم، وأي هاجس فكري أملى عليك كتابتها؟

ج ـ تلقيت مؤخراً بضعة رسائل من أصدقاء في المشرق العربي يعبرون لي فيها عن حزنهم لكوني كتبت السيرة الذاتية اليوم، قائلين إننا ننتظر الشيء الكثير قبل كتابة السيرة الذاتية. هذا هو شعور أصدقاء خارج المغرب، ولا شك أن هناك في المغرب أصدقاء كثيرين لهم مثل هذا الشعور الصادق النبيل. ولكن ربما قد يكون هناك من يبتهج لكوني دخلت مرحلة «التقاعد» بكتابة **حفريات في الذاكرة**. والحق أن كتابة **حفريات في الذاكرة** لا تعني بالنسبة لي أي شيء. إن الأمر لا يعني بالنسبة

إلى نصوص سابقة وستليه نصوص لاحقة إن شاء الله، منها هذا النص نفسه، نص هذا «الحوار». وعلى كل فـ «التقاعد» بالنسبة لي لا يعني شيئاً على الإطلاق، فأنا أقبل الحياة كما هي، والموت جزء من هذه الحياة، جزؤها الأخير. أما بالنسبة للعمل السياسي فأنا متقاعد فعلاً منذ ١٩٨١ لأسباب صحية كما يعرف كثير من الأخوة والأصدقاء.

س ـ مارست نوعاً من التحليل النفسي الذاتي لتحليل بعض الوقائع وتفسيرها. وهذا المنهاج بقدر ما يسهل فهم مكتوبك فإنه في نفس الوقت يضع القارىء الناقد أمام صعوبة تفادي هذا التحليل والخروج عن نسقه. ألا ترى أنه بقدر ما سهلت على القارىء الناقد مهمته زدتها تعقيداً؟

ج ـ أنا أقدر النقاد ودورهم، وأهمية النقد وضرورته في أي جنس من أجناس الكتابة، ومع ذلك فأنا عندما أكتب لا أستحضر البتة أي قارىء ناقد. ليس من مهمتي عندما أكتب أن أفكر في الناقد لا من أجل أن أسهل عليه عمله ولا من أجل أن أزيده صعوبة وتعقيداً. أنا أمارس حقي في الكتابة وأترك للآخرين حقهم في النقد والتأويل على طريقتهم وكيفما شاءوا. وأكثر من ذلك «أعطي» لقارئي الحق في أن يخطىء حتى في فهم ما أريد أو ما أقول. إن الخطأ في الفهم يتحمله القارىء وليس الكاتب.

س ـ لا شك أن وضعك الاعتباري والفكري في الساحة العربية يظل حاضراً. وأنا كقارىء لهذا النص (حفريات في الذاكرة) أبحث عن رسائل قد تكون منبثة تحت ظلال السرد والتحليل والتأويل المرافقة للوقائع المروية. فهل كانت لك رسائل حاضرة في الذهن أثناء كتابتك هذا النص، وهل من بعد بيداغوجي ضاغط، إن صح التعبير، وراء إصرارك على كتابة سيرتك الذاتية رغم الكثير من الاعتبارات الذاتية والموضوعية التي كانت تحول دون ذلك؟

ج ـ لم أشعر لا من قبل ولا من بعد بأي ضغط ناتج عن أي اعتبار ذاتي أو موضوعي. فيما يتعلق بالكتابة تعودت أن آخذ حريتي كاملة وأتصرف بكل استقلال عن أي ضغط خارجي، باستثناء التقيد بضرورات الكتابة، ومنها الضرورة التي تفرضها اللغة، والضرورة التي يفرضها الصدق. لقد أبدى بعض الأصدقاء استغرابهم لخلو **حفريات في الذاكرة** من أمور ترافق حياة الأطفال عادة فتخرجهم من

دائرة «الملائكة». أما بالنسبة لي فإن التزام الصدق فرض علي أن أتجنب اختلاق وابتداع حوادث وأشياء لم تكن قد حصلت. وكما قلت لك سابقاً فإن الحياة التي عشتها في مسقط رأسي فجيج كانت مكشوفة للجميع، وكما قلت في **«حفريات»** فالجميع في فجيج «يعرف القمر والقمر يعرف الجميع». إن حياتي لم تكن حياة ملاك ولا كانت حياة شيطان، بل كانت كما حكيتها وكما يعرفها الناس جميعاً، وهي نفس الحياة التي عاشها جيلي، إذ لم تكن هناك فوارق كبيرة بين العائلات، لا على مستوى السكنى ولا على المستوى المعيشي العام.

أما عن «الرسائل» التي قد تكون مبثوثة في النص الذي نحن بصدده فأنا لا أستطيع أن أنفي وجودها لأن الكتابة هي في جميع الأحوال تفكير خرج من حالة الاستضمار إلى حالة الاستظهار، من حالة الكتمان إلى حالة الإعلان. وليس من مهمتي أن أبحث عن الرسائل التي قد تكون مندسة فيما كتبت. أعتقد أنني لست المعني بهذا الأمر. فأنا لست ساعي بريد حتى أقوم بتوزيع الرسائل.

أجل قد تكون هناك بعض العبارات تحمل رسالة مقصودة، وليست «منبثة». من ذلك مثلاً العنوان الإضافي الذي وضعته تحت **حفريات في الذاكرة** وهو عبارة «من بعيد». فالرسالة هنا واضحة وهي أنني جئت من بعيد، من عصر آخر، من وضعية أخرى، ولنقل ولدت في ظروف تنتمي إلى القرون الوسطى، بينما أنا أعيش الآن ظروفاً تنتمي إلى مشارف القرن الواحد والعشرين، إلى ما يوصف بـ «مابعد الحداثة». والفكرة استوحيتها من جدتي لأبي. كانت تروي لي من حين لآخر ما عاشته أو سمعته في طفولتها من أحداث وأخبار، كانت تحدثني عن «بوعمامة» و «بوحمارة» وعن السلطان مولاي عبد العزيز وعن أشياء أخرى تنتمي إلى أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. كانت تسترسل في الحكي طويلاً وذات مرة توقفت فجأة وقالت بتعجب: «آه.. كم أنا قديمة». وعندما كنت أكتب **حفريات في الذاكرة** كانت تنتابني مثل هذه الحالة، أعني الشعور بـ «القدم» وهو ما عبرت عنه بعبارة «من بعيد». لقد كنت أشعر في بعض الأحيان أنني أنتمي إلى جيل كان يمثل درجة الصفر على مستوى الحداثة، ثم قفز إلى المرحلة الحضارية الراهنة، مرحلة «مابعد الحداثة». ربما كان في هذا رسالة إلى شباب اليوم. فإذا كان بعض الشبان اليوم، أو لنقل معظمهم أو جميعهم، يعانون من اليأس والإحباط وانسداد الآفاق فليعلموا أن الإمكانيات المتاحة أمامهم اليوم أحسن بكثير من تلك التي كانت متاحة للجيل الذي أنتمي إليه.

الثقافية الكبرى المطروحة على الساحة المغربية، مثل قضية الأمازيغية وأنك تريد أن تعطي مثالاً من تجربتك الخاصة. فهل بالإمكان إلقاء مزيد من الأضواء على هذه المسألة؟

ج ـ لم أقصد أي شيء من هذا القبيل إطلاقاً. لقد كنت أفكر وأكتب بعفوية وسليقة وبدون حواجز أو أفكار مسبقة. وإذا تكلمت عن الأمازيغية فلأنها اللغة التي كانت لي، ولا تزال إلى حد كبير، اللغة ـ الأم. لم تكن أمي تعرف كلمة واحدة بالعربية وكذلك جدتي لأمي. وأيام طفولتي كان الشأن كذلك بالنسبة لعماتي، والغالبية العظمى من أفراد عائلتي. أما جدتي لأبي فقد كانت تروي لي ما ترويه بالأمازيغية ولم تتعلم بعض التعابير العربية إلا في أواخر أيامها، أي بعد أن اجتازت الستين من عمرها. أما أنا فقد تعلمت العربية الفصحى من خلال القرآن والمدرسة الابتدائية ابتداء من الثامنة من عمري بينما لم أتعلم الدارجة المغربية إلا في حوالى الثانية عشرة. فالمسألة إذن بالنسبة إلي لا تنطوي على أية مشكلة أو إشكال.

س ـ نبقى دائماً في مسألة الأمازيغية ونريد أن نعرف رأيك في هذه المسألة وهل أنت مع ما تطالب به بعض الأصوات والجمعيات التي تريد تسييس هذه القضية؟

ج ـ المشكل المطروح في المغرب هو تهميش الجبال والقرى والأرياف. لقد ركز الاستعمار الفرنسي وجوده وعمله على ما كان يسميه بـ «المغرب النافع» وبالخصوص محور الدار البيضاء ـ القنيطرة. وعندما استقل المغرب بقيت دار لقمان على حالها في الجملة. لقد بقيت مناطق الريف (شمال المغرب) وسوس (جنوب المغرب) والأطلس (وسط المغرب) وتافيلالت وما جاورها جنوباً وغرباً وشرقاً مناطق مهمشة. هناك اليوم مغربان: مغرب مهمش ومغرب غير مهمش، ولكنه يتهمش هو الآخر في محيط مدنه الكبرى. ويتعرى هذا التهميش وأسسه وعواقبه حين يتعرض المغرب للجفاف أو للمطر الكثير.

وما يشتكي منه الناس في هذه المناطق المهمشة التي لا يعرف المواطنون في بعضها سوى الأمازيغية هو هذا التهميش والإهمال. اذهب إلى الريف وقمم جباله والأطلس ووديانه وغاباته وإلى سوس وما حولها واسأل المواطنين رجالاً ونساء كباراً

بأنهم سيشتكون من سوء الطرقات أو انعدامها ومن قلة المدارس أو بعدها، ومن انعدام المستوصفات الصحية ومن البطالة، بطالة المتعلمين وغير المتعلمين من أولادهم، وسيشتكون أكثر وأكثر من المقدم والشيخ والقايد... الخ ولكنك بكل تأكيد لن تجد أي أحد يشتكي من شيء اسمه «الأمازيغية» أو من أجلها. إن الأغلبية العظمى من هؤلاء سيجيبونك بالعربية إذا كنت لا تعرف الأمازيغية مجتهدين في تبليغ أفكارهم إليك بهذه اللغة التي قد لا يتقنها كثير منهم. أما إذا علموا أنك تتكلم الأمازيغية فهم يجيبونك بأمازيغيتهم إن كنت تفهمها وإلا حدثوك بالعربية.

تبقى مسألة أخرى وهي الأهمية التي تكتسبها دراسة اللهجات الأمازيغية دراسة مقارنة. ففي المغرب ثلاث لهجات أمازيغية رئيسية وثلاث متفرعة عنها. واللغة الأمازيغية التي يمكن أن تعتبر هي الأصل الذي تفرعت عنه هذه اللهجات، كما تفرعت الدارجات العربية عن العربية الفصحى، غير موجودة الآن. وأعتقد أن المهمة الأولى للدراسات الأمازيغية التي يجب أن تتم على مستوى جامعي ـ وباللغة العربية طبعاً بوصفها ميتا ـ لغة، أي لغة تتحدث عن لغة أخرى وتحاول فهمها ودراسة منطقها ـ أعتقد أن مهمة هذه الدراسات هي محاولة بناء لغة أمازيغية تكون للهجات الأمازيغية في المغرب والجزائر وتونس وليبيا... الخ. كاللغة العربية الفصحى، لغة عرب الجاهلية تخصيصاً، بالنسبة للهجات العربية الدارجة قديماً وحديثاً. وإذا وجدت مثل هذه اللغة الأمازيغية الأصل فمن المحتمل جداً أن نفهم طبيعة ذلك التشابه بل التطابق بين كثير من الكلمات والعبارات في اللغة الحميرية القديمة، والتي ذهل كثير من الأصدقاء الفجيجيين عندما سمعوا بعض اليمنيين يتحدثون بها. لقد حسبوا أن الذين يتحدثون إليهم هم من أصل أمازيغي. ومما له دلالة في هذا الصدد أن الحروف «الأمازيغية» التي وجدت في بعض المناطق والتي تسمى بـ «تيفيناغ» إنما معناها «الفينيقيات»، فالقاف كثيراً ما تنطق غيناً أو بين الغين والقاف، وهذا شائع في اليمن وعمان والسودان وفي الصحراء المغربية، أي على طول خط يمتد من المحيط إلى الخليج. وإذن فـ «تيفيناغ» و «تيفيناق» شيء واحد كقولك فجيج وفكيك. والصيغة الأمازيغية التي على هذا الوزن هي صيغة جمع ونسبة للمؤنث مثل قولك «تيمنزا» أي البواكر من التمر (من «أمنزو») أو «تيمنسا» أي «المنسويات»، نسبة إلى قبيلة أو جماعة «إمنسا» أو... الخ وإذن فـ «تيفيناق» معناها: أشياء مؤنثة منسوبة إلى الفينيقيين أي «الفينيقيات» أو «الحروف الفينيقية». وإذا لاحظ المرء التشابه الكبير بين مظاهر الحياة في اليمن وحضرموت وعمان

ومناطق اخرى في الجزيرة العربية، بما في ذلك القامة والسحنة واللباس والخنجر، وبين مظاهر مماثلة لها في سوس بالمغرب جاز للمرء أن يتساءل بجد عن مدى صحة الرأي الذي شاع عند القدماء ورددده ابن خلدون وهو أن سكان المغرب الأمازيغ، أو جزءاً منهم على الأقل، أصلهم من اليمن وحضرموت. وقد يكون العكس صحيحاً أيضاً. إن البحث العلمي هو الذي يجب أن يفصل في المسألة، وفي مقدمة ذلك البحث الأنثروبولوجي والبحث اللساني.

هذا من الناحية اللغوية والثقافية والحضارية. أما من الناحية السياسية فأنا أعتقد أن كل من يوظف «الأمازيغية» في الصراع السياسي بالمغرب العربي فهو يضع نفسه موضع الأقلية، في حين أن المغرب كله تقريباً أمازيغي، وحتى القبائل المعربة في الشاوية ودكالة وعبدة هي قبائل أمازيغية. ولا بد من التذكير هنا بالتجربة التي عرفتها الجزائر. فالمناضل آيت أحمد من كبار المؤسسين لجبهة التحرير وكان من كبار قادتها، ولعله الوحيد الآن الذي لم تتلطخ يده بأوزار الحكم، فلقد بقي منذ الإعلان عن استقلال الجزائر خارج السلطة يعارض الاستبداد وكل مساوىء الحكم في الجزائر إلى اليوم. ومع ذلك كله فهو في الانتخابات لا يحصل على جميع أصوات الأمازيغيين في الجزائر. وكثير من المتعاطفين معه تربطهم به رابطة أخرى دينية (الزاوية). أما السعدي الذي رفع شعار الأمازيغية بصورة أكثر جذرية فكان نصيبه من الأصوات في الانتخابات الأخيرة التي كانت نزيهة نصيباً ضئيلاً جداً حتى بالقياس إلى عدد الأمازيغيين في الجزائر. هذا درس يجب أن يضعه الإنسان أمامه.

س ـ لفت انتباهي في سيرتك الذاتية استشهادك بمقاطع من ترنيمة شعرية أمازيغية، وأنت في مشروعك الثقافي نادراً ما تفتح المجال لما هو شاعري ومتخيل في قراءتك للتراث، فهل يمكن أن نعرف لماذا تغييب هذا الجانب أو تهميشه إن صح التعبير؟

ج ـ ليس هناك تهميش ولا تغييب للجوانب التي تحدثت عنها. لقد قلت مراراً إن المسألة بالنسبة لي هي مسألة تخصص لا غير. أنا من المنتمين إلى الفلسفة المشتغلين بالفكر النظري وليست لي مع الأدب أو مع المتخيل عموماً علاقة تخصص تسمح لي بالكتابة فيه. أما عن الترنيمة الشعرية الأمازيغية فهذا شيء آخر. لقد كان المقام مقام «الحفر في الذاكرة» فتذكرت جدتي لأمي تحملني على ظهرها وتنشد هذه الترنيمة الشعرية. وقد بقيت بضع كلمات من تلك الترنيمة عالقة بذهني إلى اليوم.

وكنت قد سألت جدتي أيام طفولتي عن هذه القصيدة فكررتها لي مراراً، ولكن لم يبق منها في ذاكرتي سوى بضعة مقاطع فالتجأت إلى صديق يحفظ الكثير من أبياتها فأمدني بها.

س ـ بصيغة أخرى أقول إنك أعطيت للشعر اعتباراً عند تأريخك لما هو ذاتي بينما لم تفسح له ولا للمتخيل العربي المجال في مشروعك الفكري مع أنه يعتبر من المكونات الأساسية للعقل العربي.

ج ـ هناك فرق بين الجانب الشخصي في الثقافة وبين ما هو موضوعي وعلمي. لقد حفظت أبياتاً كثيرة من الشعر الجاهلي ومن المعلقات بكيفية خاصة وحفظت كثيراً للمتنبي والبحتري والمعري وابن الرومي وغيرهم، وقرأت **كليلة ودمنة** وأجزاء كبيرة من **كتاب الأغاني** ومن **ألف ليلة وليلة**... الخ، ولكن هذا كله لا يدخل في ميدان «نقد العقل العربي» بالمعنى الذي مارسته. فأنا ناقد ابيستيمولوجي ولست ناقداً للمتخيل. هناك فلاسفة جمعوا بين الجانبين كأفلاطون وباشلار وسارتر... الخ. وهناك فلاسفة آخرون لا يستحضرون المتخيل إطلاقاً، كما أن هناك شعراء وروائيين ونقاداً للقول الأدبي لا يستحضرون الفلسفة ولا مشاغل الفلاسفة.

س ـ أثناء انتقالك من العمل في الحقل النظري إلى الانشغال بما هو ذاتي، كيف عشت سؤال الكتابة؟

ج ـ عشته كما كتبت **نقد العقل العربي** وغيره مما كتبت. إن عقلي يشتغل بمنطقه الخاص. فعندما أكتب في الفلسفة تتحرك فيه ميكانيزمات خاصة هي التي تحكم عمله. وعندما أكتب نصاً سياسياً (بيان المكتب السياسي أو اللجنة المركزية لحزبنا مثلاً، يوم كنت أقوم بهذه المهمة)، كانت تتحرك في عقلي ميكانيزمات أخرى خاصة. والشيء نفسه ينطبق عندما كنت أكتب **حفريات في الذاكرة**. وعلى كل حال فالكتابة بالنسبة لي ليست سؤالاً محرجاً، ليست خصومة مع النفس. عندما أكتب عن موضوع معين فلسفياً كان أو سياسياً أو ذاتياً أقوم باستحضار ميدانه وفضاءاته ومشاكله وإحراجاته ولا أشرع في الكتابة إلا حينما تتضح الأمور في ذهني وضوح شمس الضحى، بما في ذلك ظلال الأشجار والجدران والظل الذي ترسله تحت قدمي المظلة التي تظلل رأسي من وهج الشمس. حينئذ أكتب، أعني يتحرك قلمي كما تتحرك عجلات سيارة يقودها سائق متمرن على طريق يعرفها جيداً. الكتابة

س ـ ما هي الأشياء التي لم تستحضرها أثناء كتابة سيرتك الذاتية، أو ما هي الفجوات التي بقيت فارغة في هذه السيرة؟

ج ـ هي الأشياء التي لم أتذكرها، لأني لم أجد ما يوقظها في ذاكرتي أو لأنها دخلت عالم النسيان بصورة نهائية، أو الأشياء التي ليس لها معنى في نطاق هذه الحفريات. الحياة في واحة صغيرة مثل التي نشأت فيها حياة رتيبة تتكرر فيها الأشياء على نفس الوتيرة والنمط غالباً، ولذلك لم يكن من الممكن ولا من الجائز تكرار الكتابة عن أشياء رتيبة، فما يفي بالغرض هو ما سجلته، أما الباقي فلم يفرض نفسه علي كحضور.

س ـ تحدثت قبل قليل عن انشغالاتك الفكرية والسياسية، ونريد أن نعرف إلى أي مدى يتقاطع الفكري والسياسي عندك؟

ج ـ بالنسبة لي ليس هناك تقاطع وإنما اندماج. ليست هناك هوة بين السياسة والثقافة، على الأقل بالنسبة لتجربتي. نعم يوجد مثقفون يكون السياسي عندهم أضعف من الثقافي، وهناك آخرون يعيشون وضعية معاكسة. وإذا قدر للشخص أن يركب الفرسين معاً ويمسك بلجامهما بيد واحدة فهذا شيء حسن، أما أين ينتهي السياسي وأين يبتدىء الثقافي فيما أكتب فذلك ما لا أستطيع تحديده. كل ما هناك هو أن الكتابة السياسية لها طابع خاص يفرض نفسه على الكاتب، كما أن للكتابة الثقافية أكثر من طابع، بحسب أجناس الكتابة وموضوعاتها.

س ـ كيف إذن توفق بين هذه الازدواجية؟

ج ـ لا يختار الإنسان حياته ولا تجاربه. وحياتي كما عشتها كانت فيها هذه الازدواجية وما تزال. ولم أخطط لهذا الأمر، مع أن طموحي منذ البداية كان ثقافياً، ولم يخطر ببالي في يوم من الأيام أني سأتبوأ وظيفة سياسية.

س ـ وهل اعتزلت السياسة بصفة نهائية؟

ج ـ ما دمت قد ربطت بين السياسة والثقافة فالجواب واضح. أنا لا أستطيع أن أدعي أنني أمارس الثقافة وحدها، الثقافة من أجل الثقافة. أما بالنسبة للمهام السياسية فقد عرضت علي قيادة الحزب في عام ١٩٦٣ الترشح للانتخابات البرلمانية فاعتذرت رغم إلحاح الأخ الفقيه البصري. واعتذرت عن الترشيح لانتخابات البرلمان

عام ١٩٧٧ رغم إلحاح المرحوم عبد الرحيم وكنت يومذاك عضواً في المكتب السياسي. وإعتذرت للأخوة المناضلين المسؤولين في الحي الذي أسكنه عندما أبلغوني القرار الذي اتخذه بالإجماع المسؤولون الاتحاديون بفرع الاتحاد بعين الشق والذي يرشحني للانتخابات التي أنتجت البرلمان الحالي، فاعتذرت رغم إلحاحهم. ولن يختلف الأمر في المستقبل.

س ـ ما هو رأي الأستاذ الجابري في إشكالية القادة السياسيين الذين يفتقدون إلى التكوين الثقافي؟

ج ـ هناك قولة معروفة منذ زمان تقول: «الحمقى هم الذين يصنعون التاريخ». لم يكن الإسكندر المقدوني مثقفاً، أما أفلاطون الفيلسوف فقد تحقق من الفشل في ميدان السياسة. ومن الأمور التي هي ذات دلالة في هذا الصدد أن المدينة الفاضلة عند أفلاطون ـ وهي بنت الخيال فقط باعترافه ـ لا تتحقق إلا إذا كان رؤساؤها فلاسفة، وهذا لم يحدث لحد الآن. أما الفارابي فهو يشترط في المدينة الفاضلة أن يكون رئيسها نبياً أو فيلسوفاً. إن هذا لا يعني أن القادة السياسيين غير مثقفين، بل لكل منهم ثقافة سياسية وأحياناً حقوقية أو تاريخية أو غيرها على هذا المستوى أو ذاك. ومن السياسيين من له ثقافة سياسية «غير مكتوبة».

س ـ هل لديك طقوس أو عادات خاصة في الكتابة؟

ج ـ تعودت الكتابة بيدي على الورق على شكل تسويد ثم إملاء النص انطلاقاً من هذه الأوراق. وعملية الإملاء هذه عملية مركبة إذ يتزاحم فيها التفكير والتعديل ويغتني فيها الجدل داخل الفكر. أما عن أوقات اشتغالي، فأنا أشتغل منذ ما لا يقل عن ربع قرن بوتيرة يومية من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، ومن الثالثة حتى السادسة مساء. وأنام في الغالب في العاشرة أو العاشرة والنصف ليلاً بعد قراءة صفحات من كتاب أو مجلة على الفراش.

س ـ ما هي الأشياء التي يمكن أن نتوقع قراءتها في الجزء الثاني من سيرتك الذاتية؟

ج ـ هذا السؤال سأجيب عنه عندما أنتهي من كتابة هذا الجزء الثاني ويخرج إلى السوق.

ملحق الصور

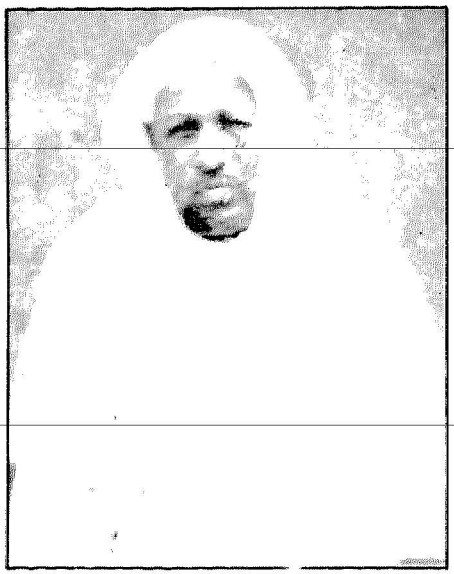

الحاج محمد افرج

المعارف

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

محبنا الاعز الارضى الفقيه القاضي الاجل السيد محمد بن بلقاسم بن عبو امنكم الله وسلامه عليكم ورحمته بوجود مولانا دام نصره وبعد . فان الفقيه . المدرس الخطيب السيد محمد بن احمد بن فرج قد حظي بمقابلة الجناب الشريف اسماه الله حيث اكد عواطفه الولائية وعرض على مولانا المؤيد رغبته في احداث مدرسة قرآنية عربية بفكيك تكون جارية على منهاج الموجودات بمعظم مدن الايالة الشريفة . وقد حبذ مولانا الفكرة وامر بالكتاب اليكم لتسعوا في تحضير ملف الطلب وفق ما يقتضيه الفصل الاول والثاني والثالث من القرار الوزيري الصادر في مراقبة المسايد بتاريخ 7 شوال 1356 الموافق ل 11 دجنبر 1937 والذي على حسبه حرر مثال طلب الذي يوافيكم صحبته و من ذلك تعلمون ان دوركم هو شهادتكم بكفاءة المعينين للتدريس الاولي والتعليم القرآني وقد عين الفقيه المدرس المذكور لذلك الفقيهين ابا القاسم بن جلول وبوعلام بن علي بن بوعزة اما الادارة فهو الذي سيتولاها . وبناء عليه فلتحضر الملف وفق ما بين ولتوجهه عاجلا الى مندوبية المعارف الاسلامية بالجناب الشريفة .

عن الامر الشريف اسماه الله

وعلى المحبة والسلام .

في 14 ربيع الفرد 1365

1 9 4 6

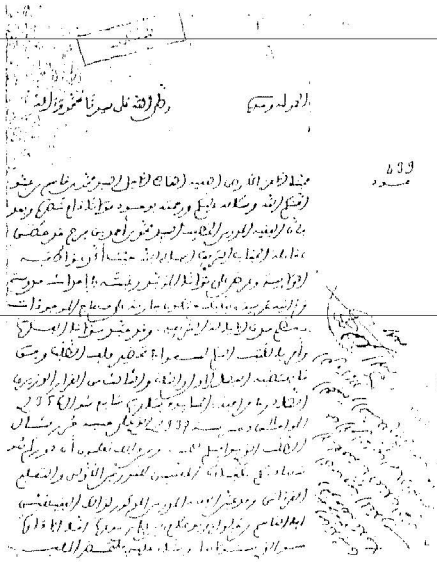

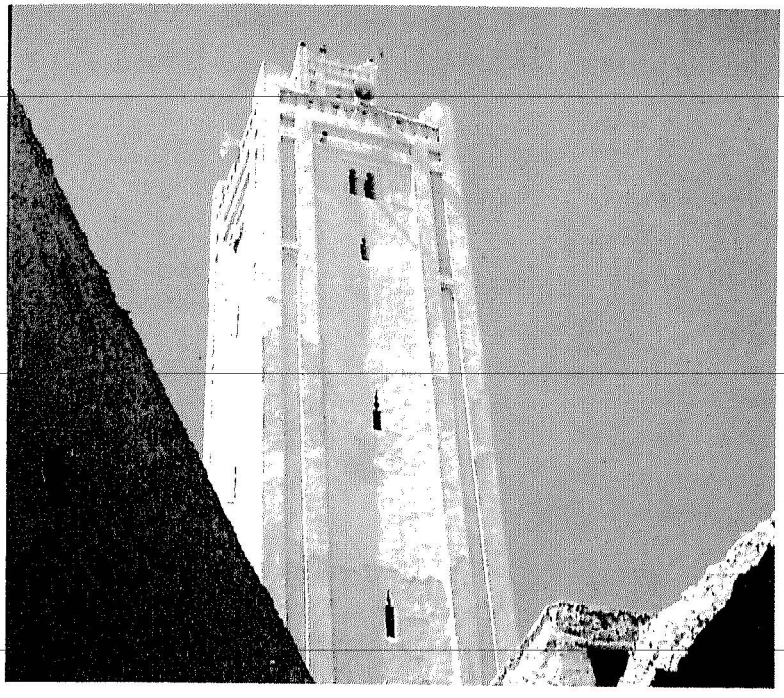

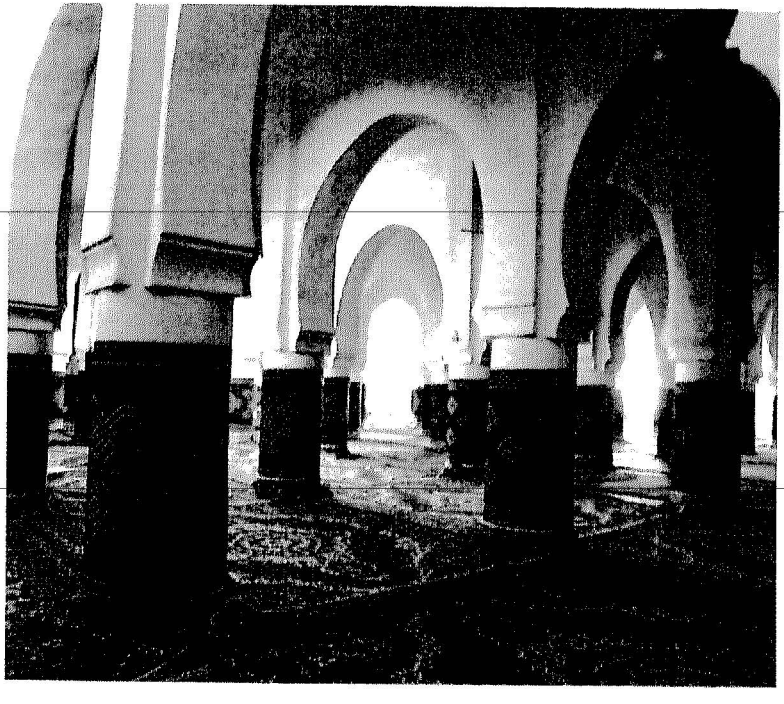

الصومعة والمسجد الجامع

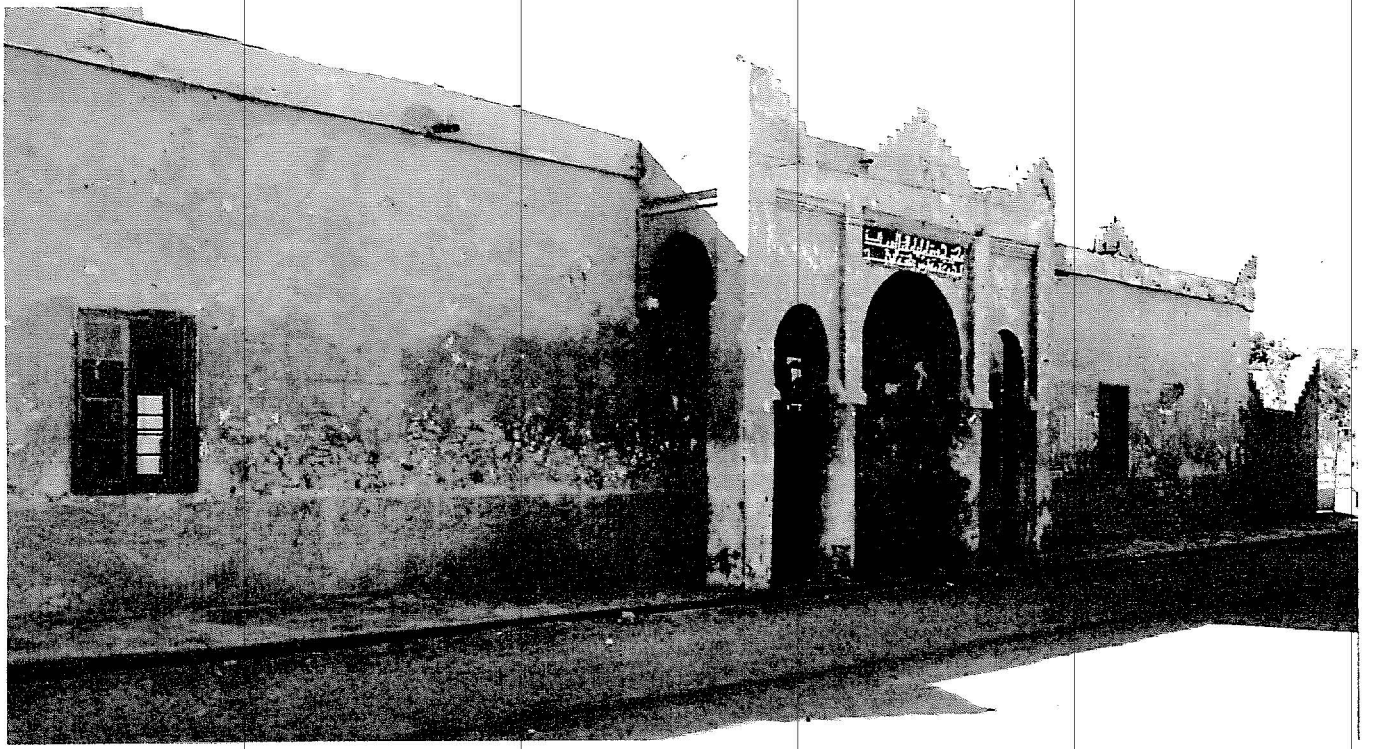

مدرسة النهضة المحمدية

أطلال من قصر أولاد جابر

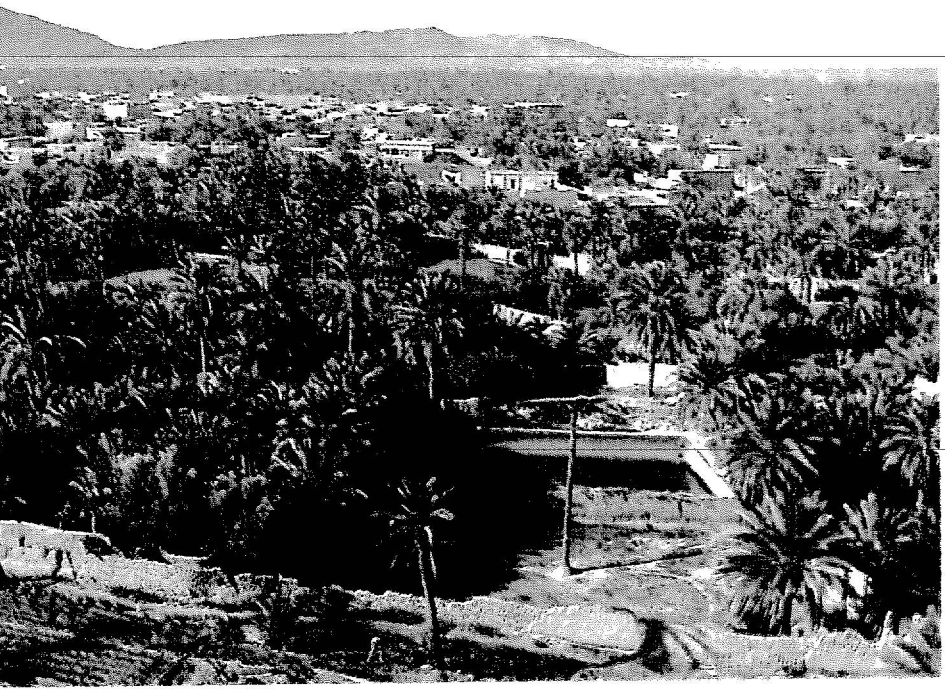

منظر عام لقصر زناكَة

وادي زوزفانة

صهريج

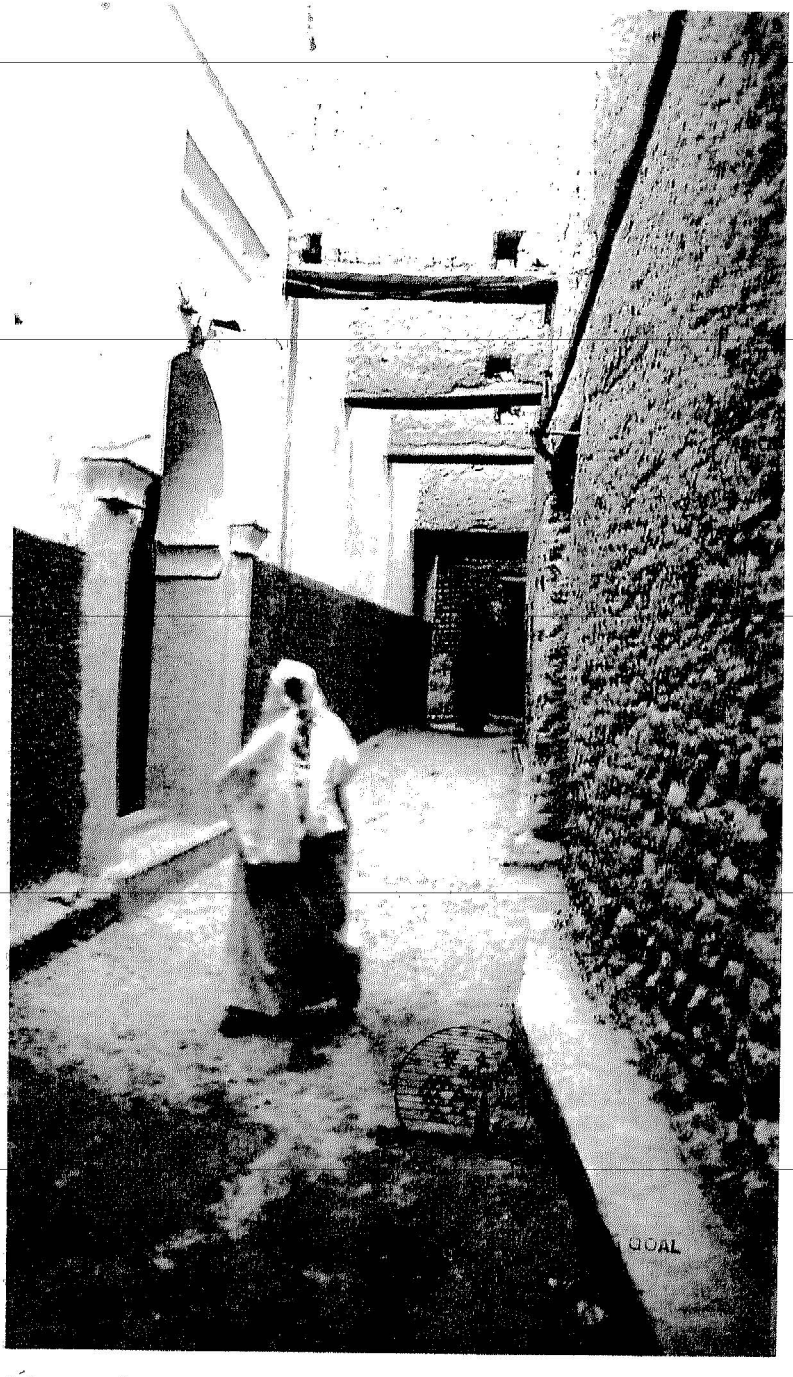

درب من قصر زناكَة

تصوير مالي محمد

هذا الكتاب

. . . وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة ـ كما للقطع الأثرية ـ عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك أولاً السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي. . . وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني». . . إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والاشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة. . .

مركز دراسات الوحدة العربية
بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الثمن: دولارات
أو ما يعادلها